كلمتنا....

يمثل الإعلام ركيزة أساسية للمجتمعات التي إختارت نمط الدولة الحديثة والمؤسسات الديمقراطية وانخرطت في منظومة القيم المدنية التي تشرّع حقوق الفرد وتحميها. هذه «السلطة الرابعة» التي تستمد وظيفتها من مصداقيتها وحريّتها والتزامها برسالتها وباختيارات المجموعة الوطنية تلعب دورا خطيرا في بلورة الوعي بمتطلبات المجتمع المدني واحترام الحريات وتكريس تقاليد المشاركة والخلق والاجتهاد والإبداع.

فبالإضافة إلى الدور السياسي والإجتماعي الذي تقوم به المؤسسات الإعلامية، سواء منها الرسمية أو المعارضة أو المستقلة أو شبه المستقلة، هناك دور ثقافي هام جدًا لا بد أن نقف عنده ونتنبه إلى ما يشكوه من تهميش ونقائص.

فمن ناحية الكم أولا تنتابنا الحيرة أمام قلة المجلات والملاحق والصفحات والبرامج الثقافية مقارنة بما تشهده بلادنا من حركة نشر وأنشطة فكرية متنوعة ومقارنة ببلدان أخرى لا تفوقنا إمكانيات واهتماما بالمسألة الثقافية. كم من مجلة ولدت ميتة وكم من مجلة تعثرت في الطريق؟ ما هو حظ الكتاب والحركة الأدبية والفكرية في الجرائد مقارنة بمواضيع السياسة وأخبار الكرة والقضاء؟ إن المجهود الذي تبذله بعض الدوريات لا يمكن أن يحجب عنا تقلص المساحة الثقافية في سلم الأولويات الإعلامية.

المسألة تحتاج إلى تفكير جدي في الهياكل والعقليات والقوانين ومسالك التوزيع. نحن في حاجة إلى فهم عميق لسوسيولوجية الثقافة في مجتمعنا وعلاقتها بتطور المنطق التجاري والاستقطاب السياسي.

ولكن القضية هي قبل كل شيء قضية كيف ونوعية للمادة الإعلامية الثقافية السائدة. فبقدر ما نتجنب التعميم والأحكام الاطلاقية (هناك محاولات جادة في بعض الصفحات الثقافة والملاحق الدسمة)، بقدر ما

ننبه إلى ضعف هذه المادة وسلبياتها، ومنها بالخصوص:

1 ـ الارتجال والتسطيح في التعامل مع الخبر الثقافي فيخرج للناس باهتا فاقدا لماهيته الفكرية أو الأدبية وأحيانا مشوها، لأن محرره إكتفى بالسماع أو التلخيص السريع الريبورتاجي أو التركيب النصي دون تعميق للموضوع أو إحاطة بمنطلقاته وسياقه، ولعل ذلك يرجع إلى المستوى الثقافي «للمتخصصين» (بدون اختصاص مهني) في هذا الميدان أو إلى ظروف عملهم أو إلى السببين معا.

2 ـ الخلط بين النقد والإعلام، فيحمّل بعضهم نفسه ما لا تحتمل وينصّب نفسه حكما مشرعا منظرا وهو بعيد كل البعد عن ذلك. فيستغل «سلطة المكتوب» لتوزيع الورود للبعض أو تحطيم البعض الآخر، دون إدراك لمعاناة الكتابة أو شعور بخطورة مسؤولية القلم. ويختلط في هذا الموضوع عامل «حسن النية» و«سوء النية» فنسمع ونقرأ نوادر عن تقنية «الورقات الموجهة» و«الصور بالألوان» و«النفخ في البالونات» ورعوانيات أخرى تكاد تقنن في سوق خضراء تخلط أحيانا بين «أخلاقيات المهنة» والتجريح والثلب في الأشخاص، بين موضوعية الإعلام النزيه وتصفية الحسابات.

3 ـ تضخيم الجدل العقيم في مسائل هامشية تأخذ طابع «الضجة الثقافية» (le Scoup!) ولكنها في نهاية الأمر لا تتقدم بالثقافة ولا تخدم الفكر والابداع ولا تساهم في نظرنا في الرفع من مستوى الخطاب الثقافي العام.

هذه مجرد إشارات لا تدعي الإلمام بالموضوع أو تشخيصه.

إنها دعوة إلى المسؤولية الجماعية تؤمن بتكامل الأدوار وضرورة تجاوز السلبيات حتى لا يهضم حق الكاتب في مجتمع الثقافة.

ـ المسار ـ

صيف عادي جدّا ...

رئيس التحرير

1 ○ كُتّابٌ يسقطون بالرصاص الإخواني في الجزائر ومصر لأنهم... كُتّاب... وكُتاب يعيشون الرعب في منفى العواصم الغربية بعد أن حوكموا غيابيا بتعجيل تقديم أرواحهم إلى جحيم الكفّار والمارقين...

كُتّابٌ شبعت أرصدتهم من الأوراق والجوائز النفطية حتى أصيبوا بالأمنيزيا مقابل ما جادت به قرائحهم من مديح وتنظير للمصائب العربية...

كُتّاب فضلوا الصمت ولبسوا الصوف بحثا عن ذواتهم في خضم الكلمات الضائعة...

كُتّاب يسترخون لأشعة الشمس ودغدغة الرمال الذهبية...

جفّتْ أقلامهم من شدّة التفكير في لغز غزو الأسواق والشاشات والمهرجانات...

وكتّاب يخططون لتوسيع نفوذهم الأدبي ورصيدهم المعنوي... يبحثون عن رأس الفتلة وذنب الحية بقدرة فائقة تضمن الضربة القاضية...

ألسنة مذبية وذباب... صولات جرائدية وحاناتية وتقطيع للأجساد وجولات ديمقراطية جدا في وزن الريشة والديك وحتى الفيل...

بطل قنفودي يتصبب ملا في خط التسلل... فقاعة كرطونية في مقعد الاحتياط... كتاكيت تتخاصم على قشرة بيضة... والمريدون ينتشرون كل صباح يستطلعون السباسب القاعدية ويسبرون حرارة الأجواء...

عادي... عادي جدا... هموم الناس على قدر قدورهم...

2 ○ العرب الثوار الأحرار حجّوا إلى القدس الشريف بتأشيرة اسرائيلية نكاية في الصهيونية العالمية... وهدّدوا بالحج إلى تل «الربيع» لغزو العدو من الداخل بالطرق السلمية...

ربيبة العالم الحر تؤدب كل المتطاولين على أمن مواطنيها فوق الأرض العربية... الشركات الخليجية ترفع المقاطعة العربية... والمفاوضات تبشر بكل خير... النسخة المنقحة لكامب دافيد بدأت تنضج في العقول التقدمية بعد أن عششت في كواليس الدبلوماسية الهادئة والعواصم المطبّعة...

البيت الفلسطيني أعاد ترتيب أوراقه للتأقلم «الذكي» مع مستجدات النظام العالمي الجديد... السحب الصيفية هي جزء من حكمة القيادة... واستقالات الكتاب الفلسطينيين تبرهن على حرية التعبير وواحة الديمقراطية...

الولاية الثانية والخمسون تصدّر أبطالها الصناديد إلى الصومال لحفظ «السلام» الامريكي بعد أن حرروا صحاريهم الغنية جدا وأعادوها سالمة إلى أصحابها...

3 ○ الانسان العربي في العراق لا يزال يرفض مقايضة كرامته وسيادته...

حسابات سياسية ومهازل أممية وعربية وشعب يجوع ولا يركع... قبضة حديدية بين العزيمة العراقية والصواريخ الكلنتونية في الشوط الأخير لأغرب حرب لم تكشف عن أسرارها... وصمت... صمت ثقيل...

سيناريو الغطاء الأممي لعاصفة الصحراء تحول إلى القرن الافريقي... الإعانة الانسانية الغربية تكشف عن وجهها المتمدن... ومأساة المجاعة والذل تعرّي سرطان الاستبداد والتخلف الذي ينخر القبائل الافريقية التي فشلت في التحول إلى مجتمعات...

فسيفساء الدول البالنانية دخلت مرحلة الفوضى «الإيجابية» التي ستبرر تعميم تدخل الشرطة الدولية وفرض «الديمقراطية» بالشكل الذي يتناسب مع توزيع الأدوار الاقتصادية واحترام حقوق الانسان...

4 ○ كتائب الموت في امريكا اللاتينية «تطهر» الشوارع المتحضرة من الأطفال المشردين... نفايات بشرية سوداء تزعج راحة السياح وسيدات الرخاء القصديري... نقاط سوداء تشوش مشهد الازدهار الاصطناعي...

5 ○ مدن محاصرة تشتعل في قلب أوروبا باطفالها ونسائها وشيوخها... والعالم يشاهد ولا يصدق تطبيق نظرية «التطهير العرقي» والقتل الجماعي والاغتصاب المنظم... جنرالات الحرب يسطرون الخرائط وموظفون سامون يناقشون الحلول والعالم «الاسلامي» يندد ويستعطف...

6 ○ امبراطـور روسيـا الجديـد يتلقـى التهـاني والقمح الامـريكي ويحتل كرسيـا شرفيا للفرجـة على المجلس السباعي... شظايـا القنبلة الموقوتـة تشعل النار في آسيا الـوسطى والقوقـاز... بوصلة مجنـونة لقرن اعرج... كتاب اخرسهم الذهـول فتاهوا في صحاري سيبيريا بحثا عن وطنهم في ذاكرة القولاك واشعار مياكوفسكي...

7 ○ ريـاح التعصب والعنصريـة تلهب المآوي البشريـة في المانيـا الجديدة وتنصب متاريس الخوف وجدران الرفض المشحونة بالتفوق العرقي...

عادي... عادي جدا... الارض تدور حـول نفسها... والحجر الاسود في مكـانــه... الجغرافيـا البشريـة والطبيعيـة في حالـة إعـادة تشكيل لمعطيات التاريخ..

لا جـديد تحت الشمس... بشـائر الخريف تحمل القصائد الجديـدة وموسم الرحيل الى جزر الاحلام اليتيمة... والدنيا بخير...

عثمان بن طالب

الجزء الثالث والاخير

الحداثة والفكر السياسي*

فتحي التريكي

إن طرح قضية الحداثة والفكر السياسي يثير إشكالات متعددة ربما تزيد من تعقيد فهمنا لعقلنة السياسة، كمحور أساسي انبنت عليه نهضة الغرب وستنبني عليها ــ بحسب اعتقادنا حضارتنا في معاصرتها الحالية لتمظهرات أشكال الممارسات السياسية. وليس بغريب ان يصبح الشغل الشاغل للعقل في الوطن العربي على المستوى السياسي هو التسآؤل عما ينبغي أن تكون عليه السلطة في تعاملها اليومي مع الأفراد وفي بناء مشروعيتها التي تضمن لها البقاء والنجاعة. هل تتمترس مشروعية تاريخية تراثية فتتخذ منها حصنا يدفع عنها غوائل التيارات الصراعية المعارضة في شكليها السلمي والعنيف، ام تحاول الاعتماد على الحاضر بتعقد مشاكله وتنوع معطياته لتنفتح على المستقبل وتبني بذلك مشروعية نظامية على التقدم والعقل العلمي والتقني الذي نجد نموذجه الفعلي والمعياري في الحضارة الاوروبية اساسا.

تلك هي مغضلة الفكر السياسي العربي في صورتها العامة رغم تباين أشكالها وتفاصيلها وتعابيرها وهي تدعو في الأخير إلى اختيارات أساسية ثلاثة، اعني اختيار المشروعية الماضوية، او المشروعية التقدمية او محاولة التوفيق بينهما.

وهدفنا هنا لا يتمثل في عرض مقومات هذه الاختيارات واختلافاتها ومميزاتها، بل في معالجة ما سطرته الحداثة من فهم لتلك الاختيارات وما ترتب عن ذلك من تصنيف جديد لأشكال النظام السياسي السائدة في عصر الحداثة. فماذا عن مفهوم السلطة وما هي الاحداثات السياسية التي طورت تصوراتنا لهذا المفهوم؟

ولعله من المفيد أن نلقي بعض الاضواء على الحقل الدلالي للسلطة خاصة وللتعابير العربية المستعملة للدلالة على المفهوم نفسه عامة، والمقارنة بينها وبين بعض المفاهيم المستعملة في اللغات اللاتينية.

فالحكم مفهوم يستعمل عادة للدلالة على المعنى نفسه تقريبا لكلمتي سلطة وسلطان. و«الحكم القضاء، جمع احكام. وقد حكم عليه بالأمر حكما وحكومة وبينهم كذلك والحاكم منفذ الحكم»(1). وفي الحقيقة ما ورد عند الشيرازي هو خاصية من خاصيات معنى هذه الكلمة التي تعددت محاور استعمالها، والحكم اشتقاق من حكم ويعني أوقف الشيء. وقد عدد غواشون في الموسوعة الاسلامية خمسة معاني مختلفة:

1 ــ فالحكم يعني قرارا قضائيا معينا، كما جاء ذلك في الآية الكريمة: ﴿وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾(2).

2 ــ وهو يعني أيضا استعمالا منطقيا للاسناد، يقول الجرجاني في «التعريفات»: «الحكم إسناد أمر الى آخر ايجابا او سلبا، فخرج بهذا ما ليس بحكم كالنسبة التقليدية»(3).

3 ـ كما تعني كلمة حكم ممارسة السلطة الادارية والحكومية والشرعية. وهذا المعنى نجده بكل وضوح في التعريف السابق عند الشيرازي.

4 ـ يمكن أن تفيد هذه الكلمة معنى الامر كما جاء في الآية الكريمة: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض، أبصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا﴾(4).

5 ـ الحكم كلمة تستعمل أيضا في معنى القاعدة لا سيما في النحو(5).

وأصلية الاعتبار تتمثل هنا أن في جل هذه المعاني لكلمة حكم هناك تناغم لدلالات متعددة، كالقيادة والعقاب والمنع والأمر وإصدار الاحكام والقواعد والقوانين. فالحكم يعني إذن تلك الممارسة المتواصلة للسلطة التي لها الأمر والنهي والمنع والعقاب، وهذا المعنى هو الذي سيطر في نمط فهم العرب عامة للسلطان، إذ إن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة سلبية أساسا، لأن الحاكم هو الوازع وهو الذي يردع ويخيف ويعاقب، بجانب عمله التشريعي. فكلمة حكم لا تفرق بين التشريع والقضاء والتنفيذ، وليس هناك ما يفيد هذا الفصل في المعاني. اما كلمة سلطان فيبدو انها سريانية الأصل(6)، وقد استعملت في القرون الاولى للاسلام لتفيد الحكم السياسي، وفي القرآن لهذه الكلمة معنى السلطة الروحية والسلطة الاخلاقية والسلطة السياسية، هذا المعنى الأخير نجده في هذه الآية: ﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان... إلى آخر الآية﴾.

وقد استعمل العرب مؤخرا كلمة سلطة لتفيد المعاني السياسية لكلمتي حكم وسلطان، وهي كلمة اشتقت من فعل سلط الذي يعني القدرة على الكلام بوقاحة والسلط هو الذي يكون قويا وصاحب اللسان يؤذي سامعه، يقول الشيرازي «السلط والسليط الشديد واللسان الطويل»(7).

أما كلمة «بوفوار (pouvoir)» الفرنسية فحقل دلالتها يتمحور حول نقطتين

أساسيتين: ففي الأولى تفيد الكلمة معنى القدرة على العمل في العالم الطبيعي وفي حقل العلاقات البشرية لتحقيق رغبات الانسان، ويوجد هذا المعنى عند هوبس وسبينوزا في مفهومي «البوتنسيا» و«الكوناتيس»، أي تحقيق الامكانات الموجودة في الطبيعة الانسانية.

وفي الثانية، تفيد الكلمة الفرنسية الاجهزة التي تضمن توازن مجتمع قد وصل الى فترة النضج وتربط مصالح أفراد المجتمع بما يحدّ أهداف المجموعة ومتطلباتها.

ولا بد أن نلاحظ في هذا الصدد أن ريمون آرون(8) من خلال تعدد الحقل الدلالي لكلمة «بوقورا» قد اكد على غياب اصطلاح واضح وناجع يكون ضروريا للتحليل العلمي الخاص بقضية السلطة السياسية، فقد بين ان اللغة الفرنسية تتضمن مفهومين لترجمة كلمة «ماخت» †(Macht)الألمانية وكلمة «باور» (power) الانجليزية، وهما «بوقورا» و«بويسانس (puissance)»، بالرغم من أن لهاتين الكلمتين أصلا لاتينيا واحدا وهو بوساي †(possé)وهو فعل يعني «القدرة على» وامتلاك القوة لفعل شيء ما. ولعل ماكس فيبر(9) عندما دقق كلمة ماخت بان وضع بجانبها مفهوم هارسخافت (Herrschaft)، فإنه قد أراد أن يبين أن الهيمنة تتطلب أن يكون الأمر مرتبطا دائما بالخضوع، فتحدد بذلك داخل الحقل الشاسع لعلاقات القوة ميدانا مختصا يكون فيه الخضوع قاعدة تفيد غياب عنصر الصمود غيابا كليا. فمفهوم الهيمنة لا يتطلب إقرار القوة فقط، بل وأيضا ملكة الخضوع (سواء كانت واعية وعن شعور وتعقل أو عن غير وعي).

والانتقال من القوة الى السلطة، من «البويسانس» الى البوقوار»، يتطلب أساسا بحسب فيبر حالة توازن وثبات لمجموعات الهيمنة. وعملية بناء المؤسسات(10) وعملية إضفاء المشروعية عليها(11) عنصران أساسيان للظاهرة السياسية للهيمنة، تلك الظاهرة المحددة لمفهوم الدولة الا انها لن تكتمل الا اذا قامت الدولة باحتكار العنف المشروع داخل حدود مضبوطة وفي أجهزة إدارية مقننة.

وما أردنا بيانه من كل ذلك هو أن مفهوم السلطة قد اكتسب من احتكاكه بالثقافات الغربية وفي استعمالاته الحالية معاني «بوقورا» الفرنسية و«باور» الانجليزية و«ماخت» الالمانية بجانب معانيها الاصلية التي أشرنا إليها، والتي نجدها في كلمتي حكم وسلطان. فالسلطة أصبحت تعني امتلاك القدرة والقوة على فعل شيء ما، كما تفيد الهيمنة بحد اللسان وبحد السيف في الآن نفسه وتطلب الخضوع الكامل وتفجير جيوب الصمود.

وقد كنا قد بينا في كتاب آخر(12) أن حضور السلطة خفي وملموس في الآن نفسه، لأنه نسيج كل حقل اجتماعي نعترضه داخل العلاقات التي تربط العائلة وفي العلاقات الجنسية والعمرانية، كما نجده في المدرسة والمعمل والادارة والورشة وغيرها من حقول العلاقات البشرية والاجتماعية... وهكذا، فإن حضور السلطة متنوع ومتعدد، لأننا لا نجدها داخل مجموع مؤسسات وأجهزة تتحكم في المجتمع فقط بل نجدها أيضا متشابكة داخل النسيج الاجتماعي نفسه، كما أكد ذلك ميشال فوكو(13). يعني أن السلطة ممارسة قبل ان تكون جهازا او مؤسسات،

لهذا فهي تاخذ أساسا شكل الصراع الآتي والمستمر في آنيته، والصراع الآتي ينتج حتما أجهزة قمع وعقلنة تحاول السيطرة على هذه الصراعات فتقنن أشكالها ونمط العمل داخلها، وهي تقوم على الاخضاع والخضوع والقمع والسيطرة. والدولة نتيجة للسلطة لأنها تقنن الصراع الآتي وتشرع القمع وتحتكره.

هكذا، فإن الدولة هي قبل كل شيء بناء للسلطة في معنييها القدرة والقوة، تحكمه مجموعة من القواعد والقوانين، ويتجسد هذا البناء في مؤسسات مدنية تعتمد العمل الايديولوجي(14)، وأخرى عسكرية وأمنية تعتمد العنف المشروع. إلا أن هذه المؤسسات (هذا البناء للسلطة) يجب أن تكون بحسب فيبر اعلى هياكل العنف والقوة في المجتمع، يعني ان لها وحدها مشروعية ممارسة العنف المقنن والمشروع داخل حدود الدولة فللدولة سلطة السيادة معترف بها من قبل الشعب ومن قبل الشعوب الاخرى اي داخليا وخارجيا. فالدولة إذن بناء سياسي وقانوني له سلطة السيادة ويعتمد العنف المشروع داخل حدود جغرافية معترف بها داخليا وخارجيا.

بهذا التحديد تكون الدولة إذن ظاهرة حديثة رغم أنها تتجذر في التاريخ البشري وفي حضارات قديمة مختلفة، وحداثتها تتمثل اساسا في الجمع بين البناء المدني السياسي والظاهرة القانونية وبين العنف المشروع داخل حدود معينة، هذا الجمع هو أساس مفهوم الدولة الأمة (L'Etat - nation).

ولكي نفهم معنى هذا المفهوم يجب أن نعرج قليلا على هيغل الذي بحسب الكساندر كوجيف(15) وايرايك وايل(16) قد وصف لنا جوهر الدولة المعاصر، وبحسب فرانسوا شاتلي(17) كان حقا المفكر الادق والاعمق لهذا الشكل التاريخي للدولة المتجسم في «الدولة ـ الأمة». فبالنسبة الى هيغل تكون سيادة الدولة هي المبدأ الضامن لوحدة الأمة، يعني ذلك أن سلطتها المتمثلة في قراراتها وهيبة قوانينها تجعل منها حكما للصراعات القائمة في المجتمع المدني داخليا، وسيدة العمليات والقرارات امام الاخطار الخارجية. وهذه القدرة على التحكيم وإضفاء التوازن في المجتمع تخضع بحسب هيغل للعقل في عمله، اي ان لتحقيق هذه الدولة من حيث هي وازع يتطلب حكاما يمتلكون قوة العقل.

على أن الدولة لم تصبح تمثيلا سياسيا تتطلب مجموعة من البشر تعيش في رقعة من الارض ولا تعترف الا بحكم ينبع عنها وتعتبر نفسها مجموعة من المواطنين يخضعون للقوانين نفسها ولهم المصالح العليا نفسها الا بعد الثورة الانجليزية (1690) والثورة الامريكية (1776) والثورة الفرنسية (1789).

هذه الثورات قد اعطت ركائز جديدة للدولة، بعد ان هدمت كيانها الاول المرتبط بالشرعية الدينية، وقد كان مكيافللي قد نقد المزج الذي كان يوجد في عصره بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة، وحاول وضع مشروعية جديدة(18) للأمير ترتكز على قيم اجتماعية يقوم هو بنفسه على نشرها، وفي بعض الاحيان على خلقها، كانتحاله لطبائع يظهرها للناس تناسب ما يتخيلونه وتستجيب الى متطلباتهم البسيكولوجية والاجتماعية. فهذه الثورات قد اكدت بالممارسة على المشروعية الجديدة للسلطة واخرجتها من بوتقة المرجعية الالهيّة التي تضع على السلطة نوعا من القداسة تجعل منها أمرا مقضيا يصعب الصمود أمامه أو نقده

والخروج عنه.

وقد أدت هذه المشروعية الجديدة الى قيام الدولة القومية في صيغتها الليبرالية، إذ إن لائكية قوانينها ونمط أعمالها تجعلها عرضة للخطأ وللمحاسبة من قبل البشر. ومن هنا تحددت العلاقة بين الدولة والفرد مباشرة وبدون تدخل عنصر غيبي او وجداني او اسطوري. وفي خضم هذه العلاقة المباشرة كان لا بد ان تقوم الدولة بحماية الفرد اجتماعيا وسياسيا، حمايته من الآخر أولا ومن الدولة نفسها ثانيا، ولهذا كانت الوسيلة الناجعة لذلك تتمثل في قيام دولة المؤسسات التي تعتمد القوانين في معالجتها للقضايا وادارتها للمهام والوظائف.

وهكذا، يصبح الفرد عنصرا أساسيا في الدولة التي تكون مهمتها الذود عن مصالحه وحمايته والعمل على ان يعيش حياة حرة وكريمة، فتصبح الحرية أساسا للعمل السياسي، بل تصبح عنصر كل الممارسات والأقوال والخطب، يقول بنجامين كونستان (Benjamin constant)» إنني قد دافعت مدة أربعين سنة عن المبدأ نفسه، الحرية في كُل شيء في الدين والادب والفلسفة والصناعة والسياسة، وبالحرية أعني غلبة الفردانية على السلطة التي تريد ان تحكم بالاستبداد وعلى الجماهير التي تطلب حق استعباد الاقلية»(19).

فبالنسبة إلى الحداثة لا تكون الحرية إلا الحق بأن لا يخضع الفرد في المجتمع الا للقوانين العامة، التي تنظم الحياة وتضمن المصلحة العامة. يعني ذلك انه على المجتمع ان يضمن كرامة الانسان، فلا يجب اعتقاله أو سجنه او قتله او تعذيبه من قبل إرادة اعتباطية لفرد، سواء كان في أعلى هرم السلطة او في اسفله، او من قبل قرار اعتباطي لمجموعة من الافراد. أن يكون الفرد حرا في عصور الحداثة يعني الحق بالتصريح علنا وبدون رموز أو واسطات ملتوية بآرائه وفلسفته ودينه واعتقاداته، كما يعني الحق في اختيار طريقة عيشه وحرية تنقلاته بدون شرط او تصريح او جواز، والحق في الاجتماع بافراد عائلته ومجتمعه، سواء كان ذلك لأغراض نفعية او دينية او ايديولوجية او سياسية.

ولابد ان نلاحظ هنا ان الدولة القومية التي ارتكزت على فكرة المجتمع السياسي المستند الى العقد الاجتماعي قد انتجت في آخر الامر نمطين متضادين للتفكير السياسي، نمط يجعل من الدولة أداة عمل لحماية الفرد من الاستبداد ويطمح الى الوصول الى حد ادنى من السلطة، ونمط يجعل من الدولة روح المجتمع وعقله بحيث تذوب فيه مصالح الفرد من اجل المصلحة العامة، فيطمح الى الوصول الى حد أقصى من التنظيم السياسي، فالحرية في نظر اصحاب فلسفة العقد الإجتماعي هي ممارسة جماعية للسيادة وهي النقاش العام حول الحرب والسلم وكل ما يهم شؤون الدولة(20)، يعني ذلك انها ستكون أساس تطوير النمط الثاني للدولة القومية الذي تحول من خلال الايديولوجية العملية الماركسية الى نظام كلياني، كما بينها عبد الله العروي(21). يقول عبد الله العروي إن «الليبرالية تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى، الباعث والهدف، الأصل والنتيجة في حياة الانسان وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمع في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر وشرح أوجهه والتعليق عليه». ويضيف قائلا: «إن الليبرالية مرت بمراحل:

ـ مرحلة التكوين، حيث كانت وجها من وجوه الفلسفة الغربية المرتكزة

على مفهوم الفرد ومفهوم الذات.

- مرحلة الاكتمال، حيث كانت الاساس الذي شيد عليه علمان عصريان مهمان، علم الاقتصاد وعلم السياسة النظرية.

- مرحلة الاستقلال، حيث نزعت الليبرالية عن اصولها كل فكرة تنتمي الى الاتجاه الديمقراطي بعد ان اظهرت تجربة الثورة الفرنسية ان بعض اصول الليبرالية قد تنقلب عند التطبيق الى عناصر معادية لها.

- مرحلة التقوقع، حيث اصبحت تعتبر انها محاطة بالاخطار وان تحقيقها صعب ان لم يكن مستحيلا، لا تستلزم من مسبقات غير متوافرة لدى البشر في غالب الاحيان».

وان كنا نشاطر عبد الله العروي في هذا التقسيم لمراحل الليبرالية، الا اننا نعتبر ان مرحلة التقوقع لم تنتج عن الوعي بأنها مستحيلة التطبيق بقدر ما كانت نتيجة طبيعية لتحول جذري في طبيعة الدولة نفسها؛ فالليبرالية نتيجة لصراعات تاريخية أخذت احيانا أشكالا عنيفة ضد حكم الاقطاع واستبداد الملوك والكنيسة، فكان لابد من التشديد على الحريات والحقوق، وكان لا بد من اقرار الفردية والذاتية على الصعيد الفكري، ولا بد من التاكيد على استقلالية الفرد وكرامته ومسؤوليته وملكاته المتعددة، ولا بد ان ينظر الفرد الى نفسه لا كمخلوق فقط بل وأيضا كخالق للأشياء والقيم، ولا بد أن يناضل من اجل الحق في الاختلاف والحفاظ على حرية الاقليات والمخالفين في نمط العيش والفكر. تلك عناصر فعالة تضمن الليبرالية كايديولوجيا عمل النجاعة على صعيد الاقتصاد والسياسية وعلى صعيد الفكر والتنظير.

لهذا، ستكون مرحلة التقوقع مرحلة تحول نمط الدولة من صبغتها الوطنية القومية الى صبغتها العلمية، بمعنى ان اساس الدولة سوف لا يتحدد بالسيادة على رقعة من الأرض فقط بل سيكون ذلك بواسطة معرفة علمية مختصة في تدبير شؤون الدولة السياسية والاقتصادية والايديولوجية.

وإذ تبين لنا ما يخص بنية الدولة القومية وعناصرها ثم ما أضافت اليه هذه الدولة من تاسيس الليبرالية بمراحلها ومستتبعاتها، تعين ان نتساءل عن صيرورة هذا الشكل من السلطة الحديثة على ضوء التطورات العلمية والتقنية.

إن الطريف في هذا المجال هو أن مفهوم الدولة القومية قد انتج على الصعيد الايديولوجي العام ثلاث اطروحات متناقضة، تمحورت الاولى حول اعطاء صبغة اطلاقية على الحرية والديمقراطية الليبرالية، ابتداء من بنجامين كونستان(22) الى ستيرنار(23) مرورا بالاكسيس دي توكفيل(24)، وتمثلت الثانية في إضفاء صفة العلم على النظام الاجتماعي للتاكيد في آخر الأمر على النظام السياسي وذوبان الفرد داخله من اجل المصلحة العامة؛ ونجد الاطروحة الثالثة في مدارس متعددة كالمنفعية التي طورها جيريمي بانثام(25) وجون ستورات ميل(26) وهربرت سبنسر(27)، كما نجدها عند أوغست كونت، ولكنها تاخذ صبغة خاصة في فلسفة الاشتراكية عند الطوباويين كسان سيمون وبرودون وفورياي وغيرهم، وعند الماركسيين بصفة خاصة.

وكنا قد بينا في موضع آخر(28) علاقة هذه الأطروحة الماركسية في الفلسفة

السياسية بالشكل الحديث للاستبداد المتمثل في الكليانية. وقد بينا ان الكليانية إذا ما التصقت بـالماركسية وحدها تصبـح كلمة فارغة لا تعني شيئـا. أما إذا تحددت كتقنية الانغماس السلطـوي الكلي في الشعب لتكوين حكم دكتاتـوري على الصعيد السياسي، سواء أكان داخل المجتمعات الماركسية أو خارجها، تصبح عندئذ مفهوما محددا لعلاقـة السلطة بالفرد ويصبح النضـال ضدها ممكنا، وذلك بإقـرار فلسفة التنوع والاختلاف والحضور، أي فلسفة النقد الحقيقي والنضال اليومي.

وما يهمنـا هنا على صعيد إفـرازات الدولـة القومية هـو انحلالها في نمطين أساسيين من خلال تبلور هذه الاطروحات الثلاث:

- نمط ليبرالي، يجد أرضيته في مجتمع رأسمالي يقوم على فكرة الفرد والذات ويجعل من الحرية المبدأ والمنتهى، بحسب تعبير عبد الله العروي.

- ونمط اشتراكي، يجد أرضيته في مجتمـع منظم تنظيما يضمحل فيه الفرد ليترك المكان الى المجموعة.

على أن الدولة القـومية التي نشأت كما أسلفنا ذكره في القـرون الكلاسيكية والتي أفـرزت اشكـالا متعـددة بقيت رغم ذلك حقيقـة الـواقع السيـاسي الـراهن. فالتحـولات التي مرت بها والتغيرات التي ادخلـت بنى جديدة في كيـانها لم تقض على نواتها الاساسيـة المتمثلة في فكرة الأمة، رغم قيـام التجمعات الكبرى بين الأمم كالمجموعة الاوروبيـة، بل بالعكس من ذلك فقـد اعطتها هـذه التحولات امكـانية الهيمنـة على المجتمعات الاخرى التي لم تصل الى ارسـاء الـدولة القـوميـة وذلك بواسطـة عملية الاستعمار بصيغها الثـلاث: الاستعمار النهبي الذي يعتمـد سرقة خيرات المجتمعـات الاخـرى بحـد السـلاح، والاستعمار التجـاري الـذي أفـرز ايديولوجيات تعتمـد العنصرية واستبعاد الآخر، كأفكار سبنسر †(Spencer)التي تطبق النظريـات الداروينية على المجتمعـات، فتعتبر ان الحيـاة لـلأفضل والأقوى، وإنه من الطبيعـي أن يستعمر من هو متحضر كـل المجتمعات التي بقيت خـارجة عن «الحضارة». وقـد دعا بنجـامين كيد (Benjamin Kidd)(29) إلى فرض هيمنة العنصر الانجليزي على العـالم، لانه الاقـوى والافضل حتى تعم السعادة في الكون، وذلك لان الامبراطـوريـة الانجليزيـة هي ــ بحسب رأيـه ـ نتيجـة القـدر الإلهي ونتيجـة العنصر الممتـاز، وهـي اسـاس زمن الحداثـة المتجـدد بفعـل الصنـاعـة وتطـورهـا. اما الصيغـة الثـالثـة لعملية الاستعمار فتتمثل في الهيمنـة الاداريـة، الحماية او المعـاهدات المشتركـة. فالاستعمار بهذه الصيـغ نتيجة حتميـة لعملية الحداثة في صيغتهـا السياسيـة، فقد دافع عنهـا كثير من المثقفين الغربيين بشقيهم الرجعي والتقدمـي، فترى مثلا ان البرت بابيب †(Albert Bayet)يحاضر في مؤتمر جمعية حقوق الانسان سنة 1931، قائلا:

«إن الاستعمار عمليـة مشروعة إذ قـدم الشعب المستعمـر كنزا من الافكـار والعواطف التي تثـري الشعوب الاخرى، وعندئذ لا يكـون الاستعمار حقا فقط بل وأيضا واجبـا... فاني أرى أن فرنسا الحديثة، ابنـة النهضة، وارثة القـرن الثامن عشر والثورة تمثل في العـالم مثالا له قيمتـه الخاصة وهي تستطيع ان تنشره في الكون بل يجب عليها ذلك»(30).

إن الذي نعنيـه باقتران ايديـولوجيـا الاستعمار بفكر الحداثة هنـا لا يفيد

اساسا سلبية عملية التحديث، ولا يدعو الى تقويض مقوماتها ومقاصدها، بل يبين لنا، على الصعيد السياسي، آليات نشر نموذج الدولة القو مية من ناحية وتجليات فكرة الحداثة التي من خلالها ندرك بسهولة أنها حقا تستند الى ثوابت كلية تتلخص في: إرادة المعرفة وإرادة التغيير وإرادة الهيمنة، اي بتعبير واحد في إرادة القوة.

والطريف ان بعد حركات التحرر الوطنية في العالم الذي هيمنت عليه القوى الاستعمارية الغربية، عندما تركت هذه القوى السلطة لاهلها قامت السلطات الجديدة ببناء الدولة قبل ان تبني الامة، فبينما انبنت الدولة الحديثة في الغرب، كما يرى الماركسيون، على فكرة الامة التي وجدت ارضيتها في المجتمع المدني المنظم والموحد، انبنت الدولة في البلاد المتحررة من الاستعمار قبل توحيد الامة وقبل قيام المجتمع المدني، بل كان ذلك عن طريق الافكار التي ستلعب دورا هاما وخطيرا في اعادة بناء الدولة والمجتمع.

هكذا، إذن، قامت السلطة السياسية في هذه البلدان على مجتمعات متفككة قد هدمت كيانها جملة الممارسات الاستعمارية، فكان على الطبقة الحاكمة الجديدة التي تسلمت بالقوة او بالسلم امور الدولة من المستعمر ان تعيد الى الشعب رابطته القومية وان تبحث في تاريخه ونضاله عن مقومات هويته ومميزاتها، وكثيرا ما يكون ذلك نتيجة محاكمة الغرب من اجل تهديمه لكيان الثقافات الاصيلة، لكي يصبح الانموذج الاوحد الناجح والمعياري للحضارة وللثقافة. فالبحث عن الكيان يمر اساسا في بلدان العالم الثالث بالنضال ضد الانموذج الغربي، لانه قد استقام كانموذج من خلال تمرير ممارسة الاهانة والذل والعنصرية. فكان لا بد ان تبنى الدولة الامة، وكان لا بد ان يتوحد الشعب حول افكار قومية تكون شعارات تنضوي تحتها الجماهير بجل طبقاتها، وكثيرا ما تتجسد هذه الافكار الموحدة للشعب حول زعيم يستمد شرعيته من قيادته للنضالات ضد الاستعمار او من مكانته الدينية الخاصة، او من مركزه الاجتماعي المتميز.

أفرزت حداثة الدولة في المجتمعات الخاضعة للهيمنة نظما إقليمية دكتاتورية في ممارستها اليومية للسلطة مرتبطة اقتصاديا وثقافيا بالقوى الاستعمارية السابقة ومرتكزة على اجهزة قمعية (إدارة وشرطة وجيش)، تتعامل بواسطتها مع الشعب، ومنتجة على الصعيد الفكري خطابا ايديولوجيا لتبرير هذه الممارسات حاثا الناس على الانضواء تحت لوائه (الحزب الواحد). فالدولة الامة التي بدأت كبديل لممارسة الاهانة والذل والعنصرية من قبل المستعمر، اصبحت من خلال جدلية الحكم في توحيد كلمة الشعب اداة هيمنة وقمع لا تكرس فقط هيمنة طبقة اجتماعية بورجوازية جديدة (البورجوازية الكولونيالية بحسب تعبير مهدي عامل(31) أي تلك الطبقة التي تكونت بشكل اساسي من خلال علاقاتها «الكومبرادورية» بالاستعمار والامبريالية وسيطا بين رأسمال الغرب والقوى العاملة والخيرات الموجودة في بلادها)، بل تفرز بالضرورة شكلا آخر متميزا مرتبطا تبعيا بشكل الهيمنة يتحدد في تطوير ظاهرة «الجماهير المتحركة». المتكونة من العاطلين عن العمل او اشباه العاطلين، من الشباب الذي لم يعش حركة

الاستقلال والتحرر الا بواسطة الذاكرة، تلك الجماهير المتحركة نجدها تغزو الملاعب والشوارع والفضاءات العمومية المختلفة، وهي في الآن نفسه ميدان انتداب اليد العاملة وعنصرا فعالا لضرب نضالات الطبقة الشغيلة، كما تكون في الازمات ميدان الانتفاضات الشعبية الرافضة.

جملة تلك التناقضات في الدولة ـ الامة بين الفكرة القومية والايديولوجيا الاقليمية، بين التحرر والقمع، بين الهيمنة والانتفاضات، بين الحرية والدكتاتورية بدأت تقوض النظام الماركسي المعتمد على تكريس القمع والهيمنة والعنف، وبدأت تظهر في الافق معالم نظام مفتوح يخول للشعوب ممارسة شيء من الديمقراطية تشارك بواسطتها في الحكم. ولا نريد هنا تحليل اسباب فشل الدولة ـ الامة في مجتمعات ما يسمى بالعالم الثالث، ولكننا بعجالة نستطيع ذكر الاسباب التالية:

1 ـ تحول نظم الحكم في البلدان الغربية المهيمنة، إذ إنها لم تعد ترتكز على فكرة الامة والوطن والحدود المضبوطة، بل فكرة العلم والتقنية. فاصبحت الدولة هي الدولة العلم. والتكنولوجيا قربت الشعوب بعضها الى بعض وقسمت العالم من جديد الى عالم منتج للتكنولوجيا (أمريكا الشمالية وأوروبا والبلدان الشيوعية واليابان والصين) وعالم يستهلك منتوجاتها بدون ان تكون له اسهامات تذكر في تطورها او حتى امتلاكها.

2 ـ فشل ايديولوجية الوحدة القومية في البلدان المهيمن عليها، تلك الايديولوجية التي جاءت نتيجة التحرر الوطني من الاستعمار والتي غطت لمدة معينة من الزمان ثراء الطبقة البورجوازية الجديدة من خلال استغلالها الموحش لخيرات البلاد وتبعيتها المفرطة للرأسمالية الغربية.

3 ـ النضالات اليومية للقوى الحية والعاملة ضد تكريس القمع في هذه البلدان، وذلك في المدارس والكليات والمعامل وفي الشوارع؛ والانتفاضات الشعبية، كلها جعلت البورجوازية الكمبرادورية تغير طريقة تعاملها مع الشعب لتسمح له بالمشاركة (الصورية) في الحكم، وهي بذلك تطبق تعليمات الاختصاصيين في المصالح الغربية التي درست كيفيات تأطير هذه الجماهير المتحركة «التي تكون خطرا على هذه البورجوازية وعلى الامبريالية بصفة عامة».

فهل هي بداية قيام النظام الديمقراطي في هذه البلدان كالنظم المصرية والتونسية والسينغالية والجزائرية والباكستانية والمغربية وغيرها. وهل يمثل ذلك معالم الحداثة في الفكر السياسي في تلك البلدان؟ لا بد إذن للاجابة عن هذا التساؤل ان نطرح قضية التاسيس الديمقراطي بصفة عامة من خلال منطلقات نظرية لمفهوم الديمقراطية حتى يتسنى لنا فهم ركائزها ومقوماتها.

ولئن تيسر لنا في الوطن العربي ان نمارس في مستويات مختلفة بعض مظاهر الديمقراطية في فترات محددة بعد الاستقلال وبعد حركات التحرير الوطني، فان التفكير النظري لتوضيح الاسس التي ترتكز عليها كل ممارسة ديمقراطية لم تصاحب بعد هذه التجارب الديمقراطية الا من خلال بعض الدراسات والنظريات العامة التي نجد صداها على اعمدة الصحف او في الملتقيات والندوات. فهذه الممارسات ان لم تكن مدعمة بالنظر والتفكير في الاسس والمقومات سيصعب عليها ايجاد شرعية معرفية، وربما استغل ذلك بعضهم للتشكيك فيها او لربطها

بشرعيات غير نظرية كالممارسات الدينية والايديولوجية. واعتقادنا ان الديمقراطية يتعين في حقها ان نعرف على اي شيء تتاسّس وباية آلية تسير وتعمل في المجتمعات، وماذا تحدث فيها من تقاليد وانماط حياة. ذلك ان انغماسها في الممارسات اليومية لمجتمع ما لن يكون واقعا وحقيقة الا اذا كنا واعين بخطورتها واهميتها نظرا وممارسة.

ولا شك أن تكوّن مفهوم الديمقراطية في اثينا في القرن الخامس قبل المسيح لم يكن صدفة ولم يكن نتيجة التحولات الاقتصادية التي شهدتها اثينا عصر ذاك فقط، بل كان بروزه وحصوله على ارضيته الخاصة التي تميزه عن بقية اشكال السلطة (الارستقراطية والاليغورشية) خاضعا على الصعيد الايديولوجي الى تكون شكل جديد من اشكال العقلانية المختلفة، ونوع من الخطاب اعطى لـ «لوغس» صبغة مبدئية، لتفسير الحياة. فقد تم التحول من السرد الاسطوري الى الفكر التأملي الذي يستند الى التحليل المنظم والى قوة الادراك والتفكير المنطقي، ويظهر ذلك بوضوح عند الفيزيائيين اليونانيين، كطاليس وانكسمندروس وانكسمان وهيراقليط، كما يظهر عند الايليين كبرمنيدس الذي اعطى للوغوس دورا اوليا وفعالا في العلم والمعرفة، فقد اصبح العقل يبحث عن قوته وحدوده ليتمركز كأساس لا للحقل الفكري المتمثل في البرهنة وتفسير الظواهر عن طريق العلية فقط، بل وايضا في الحقل السياسي حيث تم ربط الحريات السياسية واخلاقياتها بالعقل واللوغوس عند السفسطائيين اساسا، عندما حولوا وجهة التفكير نحو الاهتمام بالانسان ومجتمعه، وعند سقراط وافلاطون اللذين اعتبرا ان السياسة بصفة عامة هي التي تعتمد العدل والعدالة وتتطلع الى الافضل، اي بكلمة تستند الى العقل.

هكذا، إذن، ظهرت الديمقراطية عندما تأسس العقل بوصفه اداة المعرفة العلمية مزيحا بذلك السرد الاسطوري الاعتقادي والتقديسي.

ولا شك ايضا ان العصور الحديثة عندما اعادت باشكال اخرى بناء الديمقراطية في انجلترا (في حدود القرن الثالث عشر فما بعده) وفي فرنسا بعد الثورة الفرنسية. وفي امريكا بعد حرب استقلالها، ثم في سائر امم اوروبا، وجهت الفكر البشري في الفترة نفسها الى اهتمام بالوجود والكون عن طريق العقل والتجربة لا عن طريق الاعتقاد الديني، فكانت الثورة العلمية الاولى، ثورة القرن الثاني عشر في مدرسة اكسفورد في انجلترا، وكانت الثورة العلمية الثانية في عصور النهضة وما استتبع ذلك من تاسيس للطريقة العلمية لتناول الاشياء تناولا علميا جديدا (ديكارت)، وللعقل البشري (هيوم وكانط)، فكانت هناك نظرة تاسيسية جديدة للعقل عليها انبنى التفكير السياسي الخاص بالحريات السياسية وبنمط الحكم الديمقراطي.

ولا شك اخيرا ان القرن العشرين، بعد الحروب والثورات التحررية والاجتماعية قد ابرز شروط انفجار المعقولية الكلاسيكية، فأصبحت الديمقراطية كلمة كبيرة خطيرة رنانة وفي اغلب الاحيان لا تفيد شيئا. تستعمل للوقاية من غضب الجماهير.

ومع ذلك، ما زلنا نعتبر ان العقل هو الاساس الاول للممارسة الديمقراطية.

كيف ذلك؟

نلاحظ في البدء ان هذه التحولات الفجئية في نمط فهم الديمقراطية مردها التحولات الكبرى على الصعيد الاقتصادي والجغراسياسي. ولكنها تعود ايضا الى التحولات في فهمنا للعقل وفي التوتر الحاصل من جراء التقاء قطبي الخطاب: اللوغوس (او العقل) والميتوس (او الاسطورة). لا شك ان مجال الحداثة هو العقل ومستتبعاته، ولا شك ان في تقاليد الانوار يتحدث الفكر بالتضاد الصريح والفعال للاسطورة فينتج عن ذلك استعمال العقل قوة مقوضة لهيمنة الاسطورة على السلوك الجماعي، وذلك بتطوير المعارف وتقليص المجالات الغامضة والمبهمة في العلاقات التي تربط الانسان بالوجود، يعني ذلك ما يقول هابرمار(32) على لسان هنريش(33) أن «الانوار تعارض الأسطورة وتتوارى بذلك عن سلطتها».

وفي حقيقة الأمر ظهر هذا التضاد بين العقل والأسطورة في المناخ الكلاسيكي الغربي بصفة الإستبعاد. يعني ذلك ان الفكر الفلسفي قد أسس حداثته بمحاولة إعادة الاعتبار إلى العقل وإثباته من ناحية وباستبعاد تجليات اللاعقل من ناحية اخرى. لقد استبعدت الفلسفة الكلاسيكية اللاعقل بجميع مظاهره لأنه - بحسب فهمها - منبع الفساد والتشويش والخراب(34)، فالجنون تهريج والاسطورة خرافة. يقول ميشال فوكو: «العقل (بالنسبة إلى سبينوزا أو إلى فلسفة العصر الكلاسيكي عامة) قرار ضد كل اللامعقول في العالم»(35).

فقد انبنت إذن تقاليد الانوار فيما يخص تحديد الفكر بإثبات العقل واستبعاد اللامعقول على مستتبعات العصر الكلاسيكي الذي طور معطيات الفهم والفكر في عصر النهضة، على أن فهمنا لمعنى الاسطورة يبقى غامضا، لاننا استعملنا هذا المصطلح مقابلا لليقين العلمي بحسب فهم فلاسفة الانوار، بمعنى ان كل ما يتسم بطابع اسطوري يكون حتما غير جدير باليقين العلمي. فالعقل مفتاح الحقيقة والاسطورة مخبؤها، فبالعقل يستطيع المرء ان يسيطر على ما تخفيه الاسطورة أيضا، وأن يكتشف وظائفها أي عملية إخفاء وتوضيح ما تقوم به الاسطورة لفهم مقاصدها(36).

والفكر الاسطوري يحدد غالبا موضوعه في معاني الاصل، اي انه يدل على موقف غامض للذات عامة بالنسبة الى سلطان الاصل. فإن وظيفتها(37) تتحدد اساسا في اعطاء تفسير خيالي لاصل الوجود. كذا يتراءى مدار التصور الجديد للديمقراطية، فهي اساسا، كما يقول ايريك فايل(38)، مرتكزة على النتائج الايجابية للعقل، او بعد تدخلات هابرماز(39) على المعقولية. فالإنسان ليس عقلا (على الاقل في الميدان السياسي بما ان جنونه وميولاته العاطفية قد طغت على ممارساته) وليس لا عقلا (ربما أنه يبحث دائما عن شرعية منطقية لاعماله، وان كانت منغمسة في الخيال والعاطفة والجنون) فهو قادر فقط على العقل أو بتعبير الفارابي على التعقّل.

وما من شك أن العقل واحد، سواء جاء في صورة «لوغوس» أو «راسيو». ولذلك لا نستطيع تقسيمه بحسب الجغراسياسية التي تقسم العالم الى مناطق نفوذ وهيمنة، فليس هناك عقل عربي او عقل اوروبي وعقل امريكي وعقل هندي وآخر سوفياتي، وليس العقل خاصية قوميات ضيقة وليس انتماء الى شعب دون

آخر او الى عنصر دون آخر، كذلك لا يمكننا خلط العقل بنتائجه ومنتجاته في ثقافة معينة. فالعقل عند الكل هو «العلم اليقين بالمقدمات الكلية الضرورية التي هي مبادىء العلوم» بحسب تعبير الفارابي(40). وليس العقل أداة تفكير فقط، فهو ملكة قبل كل شيء، او بتعبير الفارابي «هو قوة يحصل لنا بها بالطبع ولا بقياس العلم»(41). والعقل نظري وعملي. فالعقل النظري أساس العلم والحكمة، والعقل العلمي اساس الاجتماع والحياة السياسية.

والملاحظ هنا أن الفارابي يقسم النفس إلى خمسة أجزاء أو «قوى عظمى(42)، القوة والحاسة والمتخيلة والنزوعية والناطقة». والقوة الاخيرة «هي التي يعقل الإنسان، وبها تكون الروية، وبها يقتني العلوم والصناعات وبها يميز بين الجميل والقبيح والافعال، وهذه منها عملي ومنها نظري»(43). فالعقل النظري هو قوة يحصل لنا بها بالطبع لا ببحث ولا بقياس العلم اليقين بالمقدمات الكلية الضرورية التي هي مبادىء العلوم(44). «والعقل العملي هو قوة يحصل للإنسان عن كثرة تجارب الأمور وعن طول مشاهدة الاشياء المحسوسة مقدمات يمكنه بها الوقوف على ما ينبغي ان يؤثر او يجتنب في شيء من الامور التي فعلها إلينا»(45)، فإن كان العلم والحكمة فضيلتي العقل النظري، فإن التعقل هو فضيلة من فضائل العقل العملي. والتعقل هو «القدرة على جودة الروية واستنباط الاشياء التي هي اجود واصح فيما يعمل ليحصل بها الانسان خيرا عظيما في الحقيقة وغاية شريفة فاضلة، كانت تلك هي السعادة او شيء مما له غنى عظيم في أن ينال به السعادة والتعقل غير الكيس وغير الدهاء وهو غير الخبث والجربزة وهو أنواع كثيرة يكون أساس تدبير شؤون المنزل وهو التعقل المنزلي، «ويكون أيضا أساس تدبير المدينة وهو التعقل المدني»؛ وهو أخيرا السعي لنيل «الخيرات الانسية». فالتعقل يصبح إدارك «الاشياء الانسانية»(45) والسعي بها الى نيل السعادة.

فالعقل إذن، سواء كان نظريا او عمليا، يجب ان يكون متجذرا في حياتنا اليومية وفي معاملاتنا المختلفة على كل المستويات. وما من شك ان تقلص العقل في المجتمعات يؤدي حتما بحسب الفارابي الى سيطرة الدهاء والخبث والمكر، لان «العقل والكيس يحتاج كل واحد منهما الى استعداد طبيعي يفطر الانسان عليه. ومتى فطر الانسان معدا للتعقل التام ثم عود الرذائل، استحال وتغير فصار بدل التعقل ذا دهاء وخبث ومكر»(47).

وما يهمنا هنا في كل ذلك هو أن هذا العقل الذي، نظريا يمكننا من السيطرة على العالم بالعلم اليقين، وعمليا من الحصول على السعادة قد اخذ أشكالا مختلفة في حاضرنا تحت عوامل عديدة، من بينها تطور التقنية وارتباطها بالارباح والهيمنة. فعودة العقل الينا في ثوبه الجديد تحددت في الاشكال الآتية:

1 ـ الشكل التكنولوجي الحركي الذي يتطور يوميا في اتجاه تقليص قدرات الانسان البدنية والروحية، ويكرس انزلاقه نحو حرب الكل ضد الكل بحسب تعبير هوبس. فالانتاج المعياري لهذا الشكل يتمثل في الكمبيوتر والآلات النووية، وهي نماذج للعقل الذي اصبح تقنية واداة فقط، خدمة للمعرفة التكنولوجية التي تولد حتما الرعب والارهاب، والتي ربما تؤدي الى نهاية النوع البشري.

2 ـ شكل التخطيط الاقتصادي الذي يبني النسق الموحد لكل الحركات

الاقتصاديـة مهما اختلفت التكونـات الاجتماعيـة. وهنـا ايضـا يصبح العقل الاقتصادي تقنيـة الاستغلال: استغـلال الموارد الطبيعية بشكل مـريب واستغلال قـوى العمل والطاقـات البشريـة في سبيل جمع الاربـاح والهيمنة. وبـذلك يصبح العقل اداة هيمنـة اقتصاديـة واضحـة غـايتها الاربـاح ونتيجتهـا تطـوّر الفقر والمجاعة.

3 ـ الشكل السياسي، حيـث تتبلور السلطـة في حـدود المؤسسات الضيقـة (كسلطة الاب وسلطـة الطبيب وسلطة رجل الـدين، وسلطة التكنولـوجيا)، أو في حـدود الوطن (أي سلطـة الـدولة) وعـودة العقل. التقنيـة هنـا تتمثل اساسـا في الديمقـراطية الشعبيـة، اي في الكلانيـة، حيث باسم الجماهير وبـاسم الشعب يتم القضـاء على مجمل الحريـات الفكرية والسياسيـة، كما تتمثل في الديمقـراطيات التقنية اي في الهوويـة †(identitarisme)حيث احتـواء هذه الحريات وكـل اشكال المعارضـة داخل اللعبة السياسية ويتم استبعاد التعارض الحقيقي لـلاختيارات السياسية.

4 ـ شكل انماط التصور الفكري والثقافي، أي شكل الوعي الثقافي العام الذي يعيد الى الانسان هيبتـه وحقوقه في عالم سيطـرت عليه الاشكال الثلاثـة السابقة «بفعل التقنية».

ورغم انزلاقات العقل في أشكال الهيمنة والغطـرسة، فإنه من خلال صبغته التعقلية بتعبير الفـارابي، أو صبغته المعقولية المفتوحـة بتعبير هابـرماز، يبقى ركيـزة اساسيـة للـديمقـراطية لان العقل كما اسلفنا ذكـره دعـامـة للحـريـات والمسـؤوليـات وركيـزة لمجتمع القانـون والحقـوق. كما تصبح السيـاسـة «علم الممارسة المعقولة، وهي العمل الكوني الذي وان كان من خلال اصله العيني عمادا فرديا او جماعيـا، لا يهدف الى الفرد والجماعـة بل يهدف الى الوصـول الى الجنس البشري»(48).

لذلك كله وحتى لا ينقلب العقل هيمنة وارهـابا واستغلالا، ولا يكون تقنية متطورة للقبض على الجسد والتحكم في ميولاته وغرائزه، وحتى لا يكون أداة بناء الانساق الكـلانية والهووية، يجب ان يكون مقترنـا في دعمه لممارسة الديمقـراطية بمفهوم آخر هو مفهوم التسامح.

وليس الجمع بين مفهـوم علمي قـد نشأ وتـرعـرع في ميـدان التفكير العلمي الـدقيق (العقل) وبين مفهوم عملي نشأ وتـرعرع داخل ميـدان التفكير في العلاقـات البشرية على الصعيـد الاخلاقي والديني (التسامح) بـامر غريب. فالانغـلاق الذي كـان يميز السلطـة الكنـائسيـة ويؤسس مشروعيـة ممارستهـا على المقدس هـو الانغلاق نفسه الذي يميـز سلطة التكنوقراطيين، اصحاب القرار الـذين يؤسسون مشروعية سلطتهم على العقل وتطوراته واشكالـه التي اسلفنا ذكرها. ثم ان السيـاسـة لا تتكىء على العقل والتعقل والمعقـولية فقط ولا على تقنيـات السلطـة وادواتها بل وايضـا على اشياء اخرى ربما لا يعقلهـا العقل ولا تحتـويها التقنية، وكما يؤكد ذلك جورج بالانديـيه(49) أن الميدان السياسي يرتكـز على اجهزة رمزية وممارسات مرمـوزة جدا ومنظمة لقواعد الطقوس، وعلى الخيـال وانعكاساته على المجتمع، بينما التحكم في الطبيعة يقع بطرق واصطلاحات اخرى.

فالتسامح هو الوسيلة لربط هذه الاجهزة الرمزية بالتعقل حتى لا يصبح الخيال جنونا سياسيا نيرونيا او هتلريا. وفي حقيقة الامر، إذا كان العقل ملكة تنظم معارفنا وسلوكنا، فإن التسامح موقف متعقل واخلاقي في السلوك والعلاقات البشرية. ولهذا، فإننا لا نحصره في الميدان الديني فقط بل نجعل منه موقفا سياسيا ضد كل تعصب وانغلاق في العلوم، والاديان والسياسة والاخلاق وهو بالاحرى مبدأ النضال ضدها لا يقبل انطلاقا من انسانية الانسان. فالتسامح نضال ضد اللامقبول.

ولسنا نريد هنا تعداد أشكال اللامقبول التي تناضل ضدها الديمقراطية المبنية على المعقولية الحديثة، ولكننا اردنا التاكيد داخل هذه الركيزة الثانية للعمل الديمقراطي على محاور ثلاثة، هي في حقيقة امرها مقومات هذا العمل الديمقراطي:

1 ــ إنه من باب اللامقبول ان تتحدد مشروعية السلطة على الخلط بين الدنيوي والمقدس. ذلك ان المشروعية †(la légitimité)بمعناها الحديث هي الاعتراف اولا بان كل وجود اجتماعي يجمع بين افراد قادرين على التعقل والحرية، يتطلب احترام مجموعة من القواعد والقوانين تجعل هذه الاجتماع ممكنا، وهي تتطلب ثانيا ان تكون هناك سلطة عليا ناجعة مهيبة لا تعتمد زعامة المحبة والقوة فقط بل وايضا احترام هذه المجموعة من القواعد والقوانين، وهي أخيرا تتطور دائما وأبدا خارج العلاقات العينية بين افراد المجتمع كقيمة في حد ذاتها معترف بها من قبل كل المواطنين أو أغلبهم.

يعني ذلك أن المشروعية لا يمكنها ان تكون خارج الارادة الشعبية، كما لا تكون خارج العقد الاجتماعي او الميثاق الوطني، لانها تتطلب الحرية والمعقولية شرطين اساسيين لكل مشروعية ممكنة. فالمشروعية التي تعتمد الخلط بين الدنيوي والمقدس تضفي حتما على ممارسة السلطة نوعا من الحرمة والقداسة باسمهما يشرع الامير وينقد قراراته وينزلق بالحكم الى القهر والاستبداد، لانه يحرم على المرء ان يضع موضع النقد والشك ممارسات السلطة وقوانينها بما انها مشرعة دينيا ومقدسة.

التسامح هنا ياخذ صبغة خاصة، لانه يريدفتح المجتمعات المنغلقة والتحول بها من مجتمعات قبلية، أسطورية أو دينية تعتمد الخيال السحري الى مجتمعات تعاقدية تبني شرعية سلطتها على انضواء الجماهير تحت مجموعة القوانين تحترمها وتعمل على ارسائها داخل طبقات المجتمع، فتصبح الدولة بذلك دولة المؤسسات ودولة القانون لا دولة الافراد او العائلات.

2 ــ إنه من باب اللامقبول ان نرفض للفرد حقا من حقوقه الحياتية والسياسية والإقتصادية والثقافية والدينية. سوف لا اتعمق في مجال حقوق الانسان، ولكن اريد ان أؤكد ان النضال من اجل الحقوق ينبني اساسا على الديمقراطية. ولنا في النظريات السياسية والقانونية الحديثة خير مثال على ذلك، فنرى انها من خلال اعمال راولس †(Rawls)ونوزيك †(Nozick)تستند صراحة في معادلاتها لتاسيس نظرية حقوق الانسان على المعقولية المفتوحة التي سادت عصر الانوار عند لوك وروسو وكانط. يعني ذلك ان المعقول والمقبول هما عنصرا

التبرير في وجود الحقوق الاساسية والاعتراف بها، مع العلم ان المعقول والمقبول ينبنيان على اسس نظرية واخرى عملية وعينية تاخذ بعين الاعتبار الظروف السياسية والتاريخية والاجتماعية.

ذلك ما يجعل هذه النظريات تهتم اكثر بمدى التزام الدولة بالاعتراف الحقيقي والعملي للحقوق. لقد كانت الدولة في احترامها للحريات التقليدية للفرد كما وردت في الاعلان عن حقوق الانسان والمواطن (1789) تعتمد موقعا يتحدد من خلال التزامات سلبية بان لا تتدخل مثلا في حق الفرد في اختيار دينه ونمط حياته ومن يمثله سياسيا. اما الآن وبعد التطورات على الصعيد الاقتصادي والعلمي، فان الدولة ملتزمة لا باحترام الحقوق فقط بل وايضا بالعمل على تحقيقها خاصة فيما يخص الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فنظرية العدالة التي يدافع عنها راولس(50) تقيم اسسا جديدة لحقوق الانسان. فقد حدد لنا راولس مبدأين عامين يحددان نظرية العدالة كما يحددان الروايات الطبيعية للفرد وللمجتمع. فالمبدأ الاول يقر الحريات التقليدية كالحرية السياسية، حرية القول والفكر وحرية العقيدة وحرية العمل وغيرها. «يجب ان يكون لكل فرد حق يساوي النسق الاكبر والاكمل للحريات الاساسية المتساوية، وحق يجب ان يكون متناغما مع نسق مماثل للحريات وللجميع». اما المبدأ الثاني فهو يخص الحقوق الاجتماعية والإقتصادية ويقرّ المساواة والتكافؤ في الفرص، ولكنه يفرض في الآن نفسه التوزيع اللامتساوي للثورة توزيعا يستند الى العمل والموهبة والمسؤولية الاجتماعية وروح المبادرة. فيتحدد هذا المبدأ كما يلي: «إن التفاوت الاجتماعي والاقتصادي يجب ان يكون منظما بحيث يكون في الآن نفسه:

1 ـ أكثر إفادة ونفعا للأقل حظا. 2 ـ مرتبطا بمراكز ووظائف مفتوحة للجميع وبشروط متساوية تضمن التكافؤ في الفرص. «وقد سمى راولس هذا المبدأ الثاني: مبدأ المساواة الديمقراطي». وبالرغم مما يتضمن هذا المبدأ من مفارقة تقر في الآن نفسه المساواة واللامساواة وتحاول الجمع بين مبدأ الاختلاف والميول الى المساواة والتكافؤ، فإن إصراره على مبدأ تعديل اللامساوة وتقويمها بواسطة العمل السلطوي من خلال المراقبة الاقتصادية والاجتماعية يقرّ به من المعقول والمقبول، رغم انه يبعده شيئا عن مبدأ الحرية المطلقة الذي ينادي به نوزيك (Nozick)(51)، معتبرا التنسيق الاجتماعي الوحيد للدولة والمقبول اخلاقيا هو الذي يحمي بدون شرط حقوق الانسان عندما يكون ذلك ضرورة ملحة، يعني ذلك ان الدولة إذا تدخلت في شؤون الفرد والمجتمع تجاوزت ما هو مقبول وربما انتجت بصفة آلية نوعا من الحكم يقترب من الكلانية او من الهووية. لهذا فنوزيك، من خلال اعتبارات لوكية يدافع من اجل دولة ذات سلطة محدودة (الدولة الدنيا) (l'Etat minimal).

وهكذا إذن، ومن خلال هذه الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، يصبح العمل على ارساء الديمقراطية نضالات من اجل الحريات ولكنه في الآن نفسه نضال ايضا ضد الفقر، والمجاعة وضد كل مظاهر التوزيع اللامتساوي للثروات الوطنية؛ كذلك تعني الديمقراطية نضالا ضد الاستغلال الاعلامي والثقافي.

3 ـ إنه من باب اللامقبول ان تتحكم العلوم والتقنيات المتطورة في الحريات

الاساسية للانسان. فلا يخفى على احد الآن ان التقنيات قد تطورت في الفترة الاخيرة، ولا سيما داخل العلوم البيولوجية والاعلامية. ولهذه التقنيات تبعات شائكة ومتعددة على حرية الفرد. فمن ناحية تقدم لنا هذه التكنولوجيا المتطورة سلطة اكبر واعمق على حياتنا، فتقوي حريتنا في العمل واختياراتنا في الوجود. إذا كانت واجباتنا وحقوقنا مرتبطة بقدرتنا على العمل، فإن بتوسيع مجال هذه القدرة تتوسع حقول واجباتنا، وحقوقنا ويظهر ذلك في الحقل الطبي حيث اصبح معدل الحياة في المجال البشري محترما، ومن ناحية اخرى تفضي هذه التكنولوجيا المتطورة الى القبض كليا على الجسد والتحكم فيه، كما تفضي في المجال الاعلامي والسياسي والاقتصادي الى التحكم في حريات الفرد تحكما يجعله رهين إدارتها وإرادة اصحاب القرار والتقنيات. فالدولة تصبح إدارة تعتمد التقنية والعلم وتصبح السياسة وظيفة ليس الا، فتعمل على ادارة شؤون الناس بدون أن تكون هناك ضرورة للاخذ بعين الاعتبار تعدد الايديولوجيات والحقوق. فالمهم بالنسبة اليها هو ان تعرف سلوك الانسان معرفة علمية حتى يتم اخضاعه الى عمل الدولة. فتضمحل إذن ضرورة المعارضة الحقيقية كما يضمحل الاختلاف والتعدد، بل إن المعارضة ستكون لعبة او قطعة معينة لها دور تلعبه داخل الدولة النسق، اي الدولة ـ العلم. هكذا يصبح للديمقراطية دور فعال آخر وهو حماية الانسان الفرد ضد الانسان ـ التقنية.

---

* من فلسفة الحداثة، مركز الانماء القومي، بيروت.

1) القاموس المحيط للشيرازي، الجزء الرابع، ص 98.
2) سورة الانبياء، آية 77
3) الجرجاني، التعريفات ـ الدار التونسية للنشر، تونس 1971، ص 49.
4) سورة الكهف، آية 25.
5) انظر: مقالة غوتييه، ص 435 ـ 454.
6) انظر: مقالة كرامار في الموسوعة الاسلامية حول كلمة: سلطان.
7) سورة ابراهيم، آية 21.
8) Raymond Aron. Etudes politiques. 1972. P. 174.
9) Max Weber. Economie et Société. 1971. P. 57.
10) L'institutionnalisation.
11) La légitimation.
12) انظر: كتابنا الفلسفة الشريدة، مركز الانماءالقومي، بيروت 1988، ص 57.
13) يرى ميشال فوكو ان حضر السلطة في اجهزة قمع واجهزة ايديولوجيا ينمّ عن عدم فهم للانغماس السلطوي في اعماق المجتمع، لان السلطة تعمل اساسا باساليب تركيبية بنيوية وهي منظمة نظاما هرميا في الجهاز التهذيبي والتاديبي العام، انظر: كتاب فوكو، المراقبة والمعاقبة، مركز الانماء القومي.
14) La lecture de Hegel. 1958.
15) Hegel et l'Etat. 1950
16) F. Chatelet - Hegel. 1968.
17) انظر كتاب: رشيدة التريكي عن الجماليات والسياسة في عصر النهضة.
18) Mélangers. 1829.

19) انظر كتابنا: الفلاسفة والحرب

20) عبد الله العروي، مفهوم الحرية ـ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب

21) عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص 39 و40.

22) عاش ما بين سنة 1767 و1830، ومن اهم كتبه: Réflexions sur les constitutions
عن فلسفته يمكن العودة الى كتاب: B. Constant et sa doctrine. 1966.

23) عاش ما بين سنة 1806 و1859، ومن اهم كتبه كتاب: L'unique et sa propriété. 1972.
ويمكن العودة الى كتاب ريمون آرون

24) عاش ما بين 1805 و 1859 ومن اهم كتبه : De la démocratie en Amérique 1968. Paris.

25) عاش ما بين 1748 و1832.

26) عاش ما بين 1806 ـ 1873.
انظر في هذا المجال: بحث شقالييه:

27) عاش ما بين 1820 ـ 1903، من اهم كتبه كتاب:

28) انظر: كتابنا قراءات في فلسفة التنوع ـ الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس 1988

29) وردت هذه المعاني في كتاب: Histoire d es idées politiques. 1982.

30) المرجع نفسه، ص 201

31) مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني ـ دار الفارابي ،بيروت 1980، ص 263.

32) هابرماز، الخطاب الفلسفي للحداثة [مرجع مذكور]، ص 130

33) هانريش: [مرجع مذكور] ذكره هابرماز، ص 130

34) انظر: كتابنا الفلسفة الشريدة ـ مركز الانماء القومي، بيروت 1988، ص 71

35) ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 157

36) انظر: كلود ليفي ستراوس، الاسطورة والمعنى، ترجمة صحي حديدي ـ دار الحوار الاذقية/ سورية، 1985.

37) عن التفسير الوظيفي للاسطورة، انظر: صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشري، ترجمة صحي حديدي ـ دار الحوار، اللاذقية/ سورية، 1983

38) انظر: ايريك قابل، هيغل والدولة

39) هابرماز [مرجع سابق]

40) أبو نصر الفارابي: فصول مترعة، تحقيق د. فوزي متري نجار ـ دار المشرق، بيروت، ص 50

41) الفارابي، المصدر نفسه، ص 50

42) الفارابي، المصدر نفسه، ص 27

43) الفارابي، المصدر نفسه، ص 29

44) الفارابي، المصدر نفسه 50

45) الفارابي، المصدر نفسه، ص 54

46) الفارابي، المصدر نفسه، 54

47) الفارابي، المصدر نفسه، ص 61

48) ايريك فايل، الفلسفة السياسية، ص 50.

49) E. Balandier. Le pouvoir sur scène. P. 145

50) Rawes. Theory of Justice.

51) Robert Nozik. Anarchy. 1971. P. 21.

في خاتمة الاربعينات كانت «الايديولوجيات» العربية تتوزع بين واحدة معنية بتحويل الحاضر في ضوء مفاهيم الدولة الدستورية، واخرى مشغولة بهذا التحويل والتغيير حسب النماذج المطروحة خارج المنظومة الاوروبية والامريكية، متنحية هي الاخرى عن الجدل الاسبق بشان التاريخ وماضي الامة، في حين كانت «الايديولوجية العربية الثورية» تفيد مباشرة من أجواء ذلك الجدل، وتجد في الافكار القومية المتداولة (المعنية بالرد على ما تناقله المستشرقون او المكيّفة لافكارهم او تلك الناشئة من جراء الظروف المستجدة) مادة لتصوراتها ازاء الماضي والحاضر والمستقبل، مؤثرة في تكوينات الضباط الاحرار والمثقفين. وكان ان ادت هذه الايديولوجية الى تغيرات جوهرية في موقف بعض المفكرين، امثال طه حسين والحكيم وغيرهما، لدرجة ان بعض المؤرخين المحدثين يعتبرون ثورة 1902 خطا فاصلا في طبيعة فكر بعض الاسماء المهمة التي رات في الثورة تحولا قوميا اساسيا غير من منظورهم للامور، وقاد الى تآلفهم وتصالحهم مع عدد اكبر من المفكرين الذين اكدوا الهوية القومية على انها استكمال للهوية الوطنية وليس الغاءا لها او تناحرا معها. وبدا الوهج الجديد للفعل السياسي شاغلا للجميع، لدرجة ان الحوار الاسبق مع علماء المشرقيات والمستشرقين توقف عند لحظة ما، على الرغم من ان الخلاصة الفكرية الجديدة التي تشكل جوهر الايديولوجية العربية (الثورية) اعتمدت منتوج الثلاثينات، واستعانت بتجريداته، بينما كانت الحرب الثانية من جانب والقضية الفلسطينية من جانب آخر، تشكلان الدوافع العملية الرئيسة في تحريك الوعي:

أي أن اهتمامات جديدة قد ظهرت، لا تخص (النزعة القومية) وغاياتها وشعاراتها وخطتها ومناهجها حسب، وانما تخص ايضا الوقائع الداخلية، لدرجة ان مجالات عربية عديدة كالثقافة في العراق ومثيلاتها في مصر والشام فتحت ملفات موسعة عن «الديمقراطية»، والتحولات في البلاد (الاشتراكية)... الخ، بينما ظهر الاهتمام بـ (الفرد) في صور كثيرة لا تخص (الهامشي) و (المغلوب) وحده والذي التقطه الكتاب من دستويفسكي في اطار،وعيهم الجديد بالانسان بغض النظر عن مكانته او طبقته: انما تخص ايضا محنة الفرد بصفته جزءا من الآخرين، المجتمع والمؤسسة والحياة المدنية. وهكذا كان الولع بالفكر الوجودي الذي اكدته مجلة الاداب البيروتية قد مسك بمساحة ليست اعتيادية من الوعي:

ولكن، هل تراجعت قضية الوعي بالآخر جراء احتدام الحياة السياسية والفكرية العملية والانهماك بظواهر الواقع وجزئياته؟ وهل تناقض الجدل بشأن مفهوم الامة وعلاقة العروبة بالاسلام، وطبيعة اراء المستشرقين في هذا الموضوع؟ ان الكتابات الغزيرة التي ظهرت تشير الى خلاف ذلك كما ان المغاربة العرب دخلوا في ميدان المناقشة بحيوية مضافة.

د. محسن جاسم الموسوي

من «الجدل والمراجعة والاعتراف في مواجهة الاستشراق»

دعوة إلى تحرير العقل العربي من استمرار الاستعداد للقبول بالاستبداد

مقاربة حول جدل الخاص والعام في المسألة الديمقراطية

عبد الله تركماني

قد يكون من الصعب أن نقول أن الديمقراطية تملك حلولا سحرية لكل مشاكل أقطارنا العربية، ولكن من السهل الإستنتاج، على ضوء تجربة شعوبنا العربية مع الاستبداد، أنها الطريق الأصوب لمجابهة التحديات المفروضة على أمتنا، خاصة إذا ساد الفهم المسؤول لمعانيها والادراك الواعي لمتطلباتها ونقاط القوة والضعف فيها.

وتكتسب دعوتنا، إلى تحرير العقل العربي من استمرار الاستعداد للقبول بالإستبداد، أبعادها الشاملة، على ضوء الخطاب الرسمي العربي، في أكثر من قطر، الذي يركز على الخصوصية لرفض الاطر الديمقراطية، تحت ذريعة أنها تنبع من ظروف غير ظروفنا وتراثنا. كما تكتسب دعوتنا أهميتها من حالة الضياع التي يعيشها بعض كتابنا ومثقفينا وسياسيينا، الذين يعارضون حقوق الانسان الفردية بالحقوق القومية للأمة، بدل أن يعملوا فكرهم في جدل العلاقة بين الحقين وعدم انفصالهما، متناسين تجربة العقود الثلاثة الأخيرة، التي شهدت فيها أمتنا أشد الهزائم والنكسات تحت يافطة الأهداف القومية والإجتماعية، وكان من أبرز ملامحها طغيان السلطة (ليست الدولة كما درج في الكتابات العربية) وتعاظم قوة أجهزتها القمعية ازاء المجتمع، وغياب الرأي العام ومؤسساته الحرة المستقلة عن الساحة، وشيوع الممارسات القبلية والطائفية والاستبدادية المتغطرسة، مما حال دون تطور الولاء للدولة. وكان من نتيجة ذلك (كما أحاط به د. ابراهيم أبراش): الاحباط، اليأس، الفقر، المديونية، البطالة، أزمة هوية وانتماء، نزعات طائفية وأثنية، وانهيار القيم والتشكيك بالمعتقدات، أنظمة وعلاقات

عشائرية وقبلية، انقسام حاد في المجتمع بين نخبة مترفة وأغلبية تعيش على الطوى، تبعية مطلقة للخارج، أزمة في علاقة المجتمع بالسلطة، وأزمة داخل المجتمع محورها غياب مفهوم المواطنة، وأزمة داخل الحكومات محورها غياب المشروعية وفشل مشروع الدولة القطرية، أزمة مثقفين وثقافة، تسابق الأنظمة على التخلي عن القضية الفلسطينية وبيعها للولايات المتحدة الأمريكية لتهديها على طبق مصنوع من أشلاء أبطال الانتفاضة وشهداء الأمة الى ربيبتها «اسرائيل».

ان الأنظمة السياسية القائمة تشرف اشرافا تاما على الصحف والمدارس والجامعات ودور النشر والجوامع، وبما أنها لا تثق كثيرا بولاء قواتها المسلحة لها، فانها تعمد الى انشاء الميليشيات والوحدات الخاصة، والى تطوير أجهزة الأمن على أنواعها لتتولى مهمة قمع وتعذيب ومطاردة المعارضين لها. والى الطغيان السياسي ينضاف عسف البيروقراطية الإدارية، التي تشل جميع الجهود التي يمكن أن تبذل لتحسين أوضاع المواطن العادي(1). لهذا، يبدو الوطن العربي عالما متفككا، لا يحافظ على وجوده الهش الا الإستبداد السياسي المتزايد عنفا، ويجد نفسه أسير معادلات سياسية مستحيلة، إذ أن الإدراك السياسي لحكامه والجزء الأكبر من معارضيهم يبدو مقتصرا على الإدانة الخطابية للمؤامرات الخارجية. ولهذا - أساسا - أمكن للولايات المتحدة الأمريكية أن تحشد تحالفا دوليا واسعا، بما فيه عرب حفر الباطن، لتدمير العراق ومنعه من امكانية تشكيل رافعة مشروع نهضوي قومي عربي.

ان جوهر العلاقة بين السلطة والشعب، في الغالبية الساحقة من الأقطار العربية، يقوم على قانون القوة والقهر، وعلى التغيب شبه الكامل لدور الشعب والقانون، والغاء حقوق المواطنة، وتفتيت المجتمع وتطويعه واخراجه من عالم السياسة، وتعطيل أية امكانية للتغيير والإصلاح، وقمع أي عمل معارض، بالإضافة الى الإعتماد شبه الكلي على الأجهزة الأمنية وتحويل مؤسسات الدولة، الرسمية والشعبية، الى واجهات صورية مسخرة لخدمة الفئات الحاكمة وطبقاتها النافذة، التي باتت تسخر لمآربها قطاعات الاقتصاد الخاص والعام والمشترك، والتي تتعارض توجهاتها - أكثر فأكثر - مع مصالح شعوبنا وتطلعاتها، وهي تقيم من مكاسبها الكبيرة ومصالحها الضخمة سدا منيعا في وجه التغيير أو أية مراجعة أو محاسبة أو اصلاح. وإزاء كل ذلك، يبدو واضحا أن الحاجة التي يحس بها بعض الزعماء للدفاع عن مصالح أقلوية - نخبوية تجعل من الصعب خلق مناخ يفضي الى سياسات للتنافس الديمقراطي.

وإذا كانت الأزمة العامة في أقطارنا العربية، بديمومتها واستعصائها، تشكل كابحا لتطلعات شعوبنا، وتضع وطننا أمام طريق العجز بمواجهة المخاطر والتحديات حاضرا ومستقبلا، فهي أيضا تزيد وتفاقم من مأزق الأنظمة في التلاؤم مع استحقاقات مرحلة ما بعد العدوان الأمريكي ـ الأطلسي على العراق، والتغييرات الكبيرة في موازين القوى والأوضاع الدولية. لقد أفقدت الحرب الأنظمة العديد من مصادر شرعيتها، وأوضحت مدى ضعف المؤسسات السياسية في الدولة القطرية العربية، وأبرزت أبعاد الأزمة الديمقراطية على النحو التالي(2).

1 ــ غياب المشاركة السياسية من قبل الجماهير العربية في الحياة السياسية، أما نتيجة اللامبالاة السياسية وضعف الوعي السياسي، وأما لعدم الثقة في الأنظمة السياسية، وأما نتيجة تضييق قنوات المشاركة السياسية من قبل هذه الأنظمة، وأما لتوافر هذه الأسباب مجتمعة.

2 ـ سيطرة شخص الحاكم تسانده نخبة محدودة على مقاليد الأمور، واحكام اغلاق الدائرة السياسية، لدرجة لا تسمح بدخول أية عناصر جديدة الا في ظل ظروف وشروط بالغة التعقيد.

3 ــ الانفصال بين الحاكم والمحكوم، وعدم وجود تفاعل بين قيم وأمنيات ومطالب المحكومين والسلوك السياسي للحاكم الأمر الذي يؤثر في مدى توافر شرطي الرضا والقبول من جانب المحكومين، وهما الشرطان اللازمان لاستمرار الأداء السياسي للسلطة وفعاليته في المجتمع.

4 ــ يؤدي وضع كهذا الى اتجاه النظام السياسي الى استخدام كافة أساليب العنف تجاه معارضيه، الأمر الذي يؤدي الى اهدار كافة الحريات والحقوق المتعلقة بالإنسان، كما يؤدي الى اتساع دائرة العنف في المجتمع من قبل بعض الجماعات النشيطة في المجتمع.

5 ــ غياب المؤسسات السياسية الفاعلة القادرة على اعداد وتدريب وتجنيد المواطنين بالأسلوب الديمقراطي الذي يقوم على الحوار والمناقشة الموضوعية.

6 ـ شيوع قيم الاتكالية والفردية والانتهازية السياسية في المجتمع.

7 ــ غياب البنى الإقتصادية والإجتماعية والإطار الثقافي والفكري اللازمين للممارسة الديمقراطية.

8 ـ عدم الإعتراف بالتعددية السياسية، وعدم امكانية تداول السلطة بأسلوب ديمقراطي منظم.

ان العناصر السابقة الذكر هي التي أعادت انتاج النظم التسلطية في الوطن العربي، مستندة الى تدخل العسكر في الحياة السياسية والاجتماعية

والاقتصادية. وإذا كان الهدف من تدخل الجيش هدفا انقاذيا في البداية، مرتبطا بمطالب العرب العليا: الإستقلال والوحدة والديمقراطية والتنمية. الا أن تمركز الجيش في الحكم أدى تدريجيا الى غير ما جاء من أجله: ففي خطوة أولى، استولى الجيش على مؤسسات الدولة بكاملها، معطلا بعضها ومحتكرا بعضها الآخر. وفي خطوة ثانية، استولى على النظام السياسي بكامله، معطلا الدستور والمكاسب الديمقراطية والتنظيمات السياسية المستقلة. وفي خطوة ثالثة، استولى على التنظيمات الإجتماعية، بما فيها النقابية والمهنية، حتى يمنع امكان تحولها الى قوة معارضة. وفي خطوة رابعة، استهدف القضاء على المصدر المادي الرئيسي للقوة الإجتماعية في الدولة التقليدية، وهو الملكية الزراعية. وهكذا، توصل العسكر الى امتلاك جميع مصادر القوة والثروة في المجتمع، وكان من نتيجة ذاك ميلاد طبقة جديدة طفيلية تملك كل شيء في المجتمع دون رقيب أو حسيب. وقد وجدت هذه الطبقة في النموذج السوفياتي «نظام الحزب الواحد» نموذجا يرضي تطلعاتها ومصالحها، حيث انتهت التجربة الى تحول الحزب، الواحد أو القائد، الى هيكل عظمي، لا يفيد الا في تجميد الشعب، والى وسيلة نجاح فردي لقياداته المقربة من النخبة الحاكمة. وهذا ما دفع واحدا من مثقفينا العرب الى القول، في اطار بحثه عن العقلانية في الممارسة السياسية العربية «اننا نتطلع الى بناء حكم مدني، لا حكم عصابة، ولا ائتلاف نهابين».

قد تكون آلام ولادة الديمقراطية ومعضلاتها واحدة في أكثر تجارب مجتمعات العالم، ولكن مع ذلك تبقى للمجتمعات خصوصياتها التي تلقي بآثارها على عملية الولادة، وعلى مستقبل الوليد، وتنبع هذه الخصوصية الى حد بعيد، من اشكاليات جوهرية تتطلب الحلول الخلاّقة والمبدعة، لكي تأخذ التحولات الديمقراطية أبعادها الكاملة. وفي مقدمة هذه الاشكاليات، في الوطن العربي، العلاقة مع الإسلام، باعتباره العقيدة الدينية التي يؤمن بها غالبية العرب. ومن هذه الاشكاليات المهمة أيضا ما يظهر أحيانا من تعارض، وهمي في أغلب الأحيان، بين موجبات الأمن القومي، الذي يقتضي المركزية في تعبئة الطاقات لمواجهة التحديات الخارجية، وموجبات الديمقراطية التي تقوم على اطلاق مبادرات الأفراد والجماعات. ان خصوصية أمتنا لا تنفي حاجتها الى الديمقراطية أو استعدادها لقبولها، وانما تعني أن ظروف تطويرها عندنا تختلف عن ظروف تطورها عند غيرنا(3). إذ أن تطبيق الديموقراطية في وطننا العربي، الذي يغص بالمشكلات الداخلية وترهقه التحديات الخارجية. ولا يتفق ساسته، في الحكم والمعارضة، على أولويات المشكلات التي يعانيها، ولا تلتقي أهدافهم أو

تتكاتف جهودهم لمواجهة كل هذه المصاعب ودفع عجلة التطور في الإتجاه الصحيح. ان تطبيق الديمقراطية، في مثل هذه الحالة، يتطلب تطوير نسق ديمقراطي أكثر اتساقا وتوافقا مع تفكير شعوبنا وعبقريتها، أي ما يمكن أن نطلق عليه: الطريق العربي الى الديمقراطية، المؤسس على مشروعية التعدد ومبدأ الحق في الإختلاف.

ان دعوتنا الى الطريق العربي نحو الديمقراطية تستلهم نداء العلامة الثائر عبد الرحمن الكواكبي الذي قال: «يا قوم هداكم الله الى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم وعز كريم أفلا تنظرون؟. وما هذا التأخر وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل حتى صار ما بعد ورائكم أمام أفلا تتبعون؟ أم أنتم كأهل الكهف ناموا ألف عام ثم قاموا وإذا بالدنيا غير الدنيا والناس غير الناس فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون». وفي سعيه لرفع الاستبداد حدد الكواكبي ثلاث قواعد هي (4):

1 ـ (الأمة التي لا يشعر أكثرها بآلام الإستبداد لا تستحق الحرية) لأن الأمة التي توارثت الاستبداد قرونا عديدة تعتاد عليه، وتألف معه حتى أنها تنسى الحرية ولا تعرف لها قيمة، مما يجعلها تقاوم المستبد لتنصب مستبدا آخر مكانه، أو تنتقم من المستبد لشخصه ولا تنتقم من مؤسساته التي تكبر وتفرخ استبدادا آخر قد يكون أكثر عنفا وقبحا. «فالحرية التي تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، أما التي تحصل اثر ثورة حمقاء فقلما تفيد شيئا لأن الثورة غالبا ما تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها فلا تلبث أن تنمو وتعود أقوى مما كانت أولا».

هذه النقطة أدركها الكواكبي ادراكه استحالة التغيير الجذري بطرق انقلابية أو مؤامراتية.

2 ـ (الإستبداد لا يقاوم بالشدة بل بالمحكمة والتدرج)، فالوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الأمة ونشر الوعي والثقافة وتحميس الشعب، وهذا يحتاج الى زمن طويل خصوصا وأن الشعب قد فقد الثقة بالحكام زمنا طويلا وفقد كذلك الثقة بالدعاة والمحرضين.

الكواكبي كداعية ومحرض سياسي ينطلق من الواقع، من موازين القوى، لا من الرغبات والشعارات، همه لقطع دابر الاستبداد يدفعه الى رفض الانجرار الى معركة غير متكافئة وخاسرة سلفا كي لا تتم التضحية بالطلائع الحية دونما ضمانه للتقدم خطوة الى الأمام، وبما أنه لا يراهن على السلطة بوصفها السطح السياسي بل يراهن على القاع الاجتماعي، فهو يدعو الى التقدم بخطوات وئيدة لكن موزنة ومدروسة وعبر دعم جمهور

الأمة لهذه الخطوات، والا فالمقاومة المتسرعة للمستبد دون مراعاة الشروط تقود الى فتنة تحصد الناس حصدا، وتنتكس بالمشروع الديمقراطي للوراء.

في دعوة الكواكبي لمقاومة الاستبداد بالحكمة والتدرج لا يوجد أي ظل للخوف أو لانتهازية، أو المساومة، بل يملؤه الحرص على مستقبل التغيير وعلى توجيه الضربة المناسبة الى الحلقة الأضعف وفي الوقت المناسب دونما تسرع أو شطح عفوي.

3 ـ (قبل مقاومة الاستبداد يجب تهيئة البديل) ويجب تعيين الغاية المرجوة من مقاومة المستبد، الا وهي الحكومة الديمقراطية وتعيين ملامحها وسماتها لئلا يقود تغيير الحاكم المستبد الى آخر أكثر استبدادا، ولا يكفي تعيين الهدف بالاجمال بل يجب معرفته معرفة دقيقة وواضحة قدر الامكان كما ينبغي تحديد الطريق الموصل الى الهدف، وبلغة السياسة: لابد من رسم البرنامج وتعبئة الجماهير حوله: «يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الكافة والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك». ومالم يحرز على رضى الأكثرية وما لم تدعمه الجماهير فمصيره الفشل ومصير مقارعة الاستبداد الفتنة التي تحصد الناس وتخرب البلاد.

وإذا أردنا الدخول في تفاصيل بدائل الكواكبي المطروحة، نجد أنها تتوزع في اتجاهات أربعة(5): المساواة، والحرية، والعدالة، والشورى الدستورية.

1 ـ المساواة: يعتقد الكواكبي أن الناس جميعا متساوون، وأن ليس هناك انسان يفضل سواه لانحداره من سلالة خاصة، أو بما ينتقل اليه من جاه بطريق الوراثة أو بما يحصله من مال أو سلطان، وانما معيار الأفضلية هو الاحجام عن الشر. لذلك نراه يطلب المساواة في الحقوق الطبيعية (حفظ الذات والنوع) وفي الحقوق السياسية (لا فرق بين حاكم ومحكوم، بل لابد من المشاركة السياسية) وفي الحقوق المدنية (حق التملك...) وفي الحقوق العامة (حق العلم والتعلم والعمل...) من دون تفرقة بين غني وفقير، أو حاكم ومحكوم. أما من حيث المساواة في الواجبات فيورد الكواكبي حديث «... (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)، أي كل منكم سلطان عام ومسؤول عن الأمة»، فالناس جميعهم مطالبون، على قدم المساواة، بحفظ كيان الأمة والدفاع عنها ضد الأخطار، وبالأخذ بيدها نحو التقدم والازدهار، ولا يحق لأحد التنصل من هذه المسؤولية كما لا يحق لأحد أن يمنع آخر عن القيام بهذا الواجب، فلا بد أن يقتسم الناس مشاق الحياة ويمارسوا أعمال الزراعة والصناعة والتجارة، مبتعدين عن الإرتزاق بالحيلة والشعوذة والسمسرة، وما أكثرها اليوم.

2 ـ الحرية: يصف الكواكبي الحرية بأنها قدرة الانسان على الاختيار

«بأن يكون الإنسان مختارا في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم». وترتبط فكرة الحرية لديه بفكرتي العدالة والمساواة لأنه يرى أن «من فروع الحرية تساوي الحقوق»، «ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاضب أو غدار مغتال». وتتعدد جوانب الحرية لديه من حرية التعبير الى حرية الاعتقاد والعلاقات وحقوق التملك، وهي كلها تعني لديه «الأمن على الـــدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعــراض، والأمــن على العلم واستثماره». وهو، مع مطالبته بحق التعبير عن الرأي والمطالبة بالحقوق، فانه يدعو الى ضرورة وجود الحرية السياسية، إذ نراه يعدد من فروع الحرية «محاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية». ويقرن الكواكبي الحرية الشخصية بالحرية السياسية، ويرفض أن تسيطر الحكومة على أعمال الناس وأفكارهم لأنه يرى أن «أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقا، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي، لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية». إذ لا حدود لحرية الفكر لأن الأمة «جامعة سياسية اختيارية، لكل فرد حق اشهار رأيه فيها». أما حرية الفعل فهي مشروطة بعدم مخالفة القانون الذي يرتضيه المجتمع لنفسه، ولكن القيد الذي يفرضه الكواكبي على الفعل هو قيد محدود لا يتعدى القواعد الاجتماعية العامة السائدة، في ما عدا ذلك، لا يحق لأحد أو لهيئة ـ بما في ذلك الحكومة ـ أن تحد من استخدام الانسان حريته. والحرية السياسية لا تكتمل الا بوجود حكومة دستورية مراقبة ومسؤولة لدى الأمة. أما الحكومة الاستبدادية فعلى الانسان أن ينتزع حريته منها انتزاعا، مهما كلفه ذلك.

3 ـ العدالة: هي بديل الظلم والتفاوت القائم بين الناس، الذي تحميه الحكومات المستبدة. وكثيرا ما يربط الكواكبي العدل بالمساواة، فو يعرف العدل قائلا: «العدل لغة تسوية، فالعدل بين الناس هو التسوية بينهم». وبما أنه يطلب العدل على الصعد كلها: القانونية، والسياسية، والاجتماعية... لذا فانه يحاول ايقاظ قومه على ضرورة تحقيقه، يقول: «خافوا غيرة المنعم الجبار. ألم نخلقكم أكفاء أحرار طلقاء لا يثقلكم غير النور والنسيم، فأبيتم الا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء». والعدل في رأيه هو قيام بالواجبات واستيفاء للحقوق، على نحو تتضح فيه المساواة.

4 ـ الشورى الدستورية: ان البدائل السابقة (المساواة والحرية والعدالة) لا تتأتى الا بسيادة الشعب على نفسه. وسيادة الشعب لا تكون الا بتحقيق الشورى، عن طريق مشاركته في ممارسة الحكم ليكون الحكم عادلا، لأن

للحكم تاثيرا كبيرا في شؤون الحياة كلها، وهو الذي يمكنه الحفاظ على المساواة والحرية والعدالة بواسطة احترامه قانون الدولة، وتمسكه بأصول الشورى في الحكم.

ان الشورى الدستورية التي دعا اليها الكواكبي، ما هي الا الديمقراطية، باعتبارها الوسيلة العصرية المؤكدة لممارسة جوهر الشورى عن طريق كفالة حق الناس في اختيار حكامهم وتقرير مصير مستقبلهم.

ومن أجل الفهم المسؤول لمعاني الديمقراطية والإدراك الواعي لمتطلباتها ونقاط القوة والضعف فيها نستدرك فنقول أن خطرين يحدقان بها: أولهما، اعطاؤها تعريفا جامعا مانعا، يؤدي الى اعتقالها، ويمنع تطورها ونموها ومن ثم الى قتلها، كما حصل مع قيم انسانية أخرى. وثانيهما، عدم الاتفاق على معايير أساسية لتحديد ماهيتها ومتطلبات تحقيقها. لذلك، نقول أن الديمقراطية هي شكل ممارسة الحرية في المجتمع والدولة، انطلاقا من أن الإنسان هو محور العالم ومقياس القيم، باعتباره صانع تاريخه وسيد مصيره.

ان الديمقراطية تعني الحوار، والاعتراف بالآخر، والاعتراف بنسبية الحقيقة واحتمال خطأ الذات، واحترام الرأي الآخر والاستماع اليه والتفاعل معه، وعدم تكفيره وإدانته أو الوشاية به لدى السلطات كأنه خيانة عظمى. وقد أرجع الدكتور حسن حنفي، في بحثه الشيق والعميق عن «الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا»، أزمة الديمقراطية في وجداننا المعاصر في خمس مجموعات(6):

1 ـ حرفية التفسير: التي تلغي الحرية لصالح الإلتزام بحقيقة مطلقة مسبقة، مكتوبة بصياغة واحدة أبدية، وتوحد عقلية السلطة السياسية مع السلطة الدينية ضد الإنسان، إذ تعتمد كلتاهما على التنزيل: تنزيل الأمر من السلطة الى الشعب، وتنزيل المعرفة من السماء الى الأرض، وتلغيان بالتالي حق المراجعة والمناقشة والحوار.

2 ـ تكفير المعارضة: الذي شاع منذ انتشار الأحاديث الموجهة للسلوك والاذهان، وخاصة الأحاديث الموضوعة لغايات سياسية وأيديولوجية واجتماعية كحديث «الملة الناحية»، وأصبحت «كل الفرق الضالة هي كل أنواع المعارضة للسلطة القائمة كما أصبحت الفرقة الناجية هي حزب الحكومة».

3 ـ سلطوية التصور: في هذا التصور تختفي الإرادة الانسانية، ويتوارى العمل والعقل ويتحدد الانسان بالإيمان الذي لا يخالطه ويساوره الشك. ومن هذا التصور تنبع فكرة الزعيم الأوحد المنقذ الأعظم والقائد الملهم..

والحاكم الفردي الذي لا تني الشقة تزداد اتساعا بينه وبين المحكومين، وبقدر ما يزداد صلفا وتكبرا وغطرسة وعسفا يزداد المحكومون اصغارا وذلا وهوانا،؟. انه تصور يعطي القمة كل شيء ويسلب من القاعدة كل شيء، بل يسلب من القاعدة كل شيء ويعطيه للقمة.

هذا التصور يقسم البشر الى خاصة، أو علية القوم، وسادة، وسراة وأشراف ونقباء ... الخ من جهة، والى عوام ورعاع ودهماء وسواد الناس و ... ألخ.

4 ــ تبرير المعطيات: إذ أنه ازاء العقل، ذي المصدر الالهي، يستحيل الحوار، لأن المعطيات مقبولة سلفا ولا توضع موضع الشك والنقد.

5 ـ هدم العقل: فمنذ كان الهجوم على العلوم العقلية، في القرن الخامس الهجري، بدأ هدم العقل واستقالته، وهو أداة الحوار.

ان الدعوة الى شرعية الاختلاف وسلطة العقل تشكل جوهر الديمقراطية، باعتبارها نظام مؤسسي لادارة تعددية المجتمع المدني، ووسيلة لإدارة التعدد بواسطة مؤسسات متعاقد عليها. وتكتسب الدعوة الى الديمقراطية أهميتها من حاجة أقطارنا العربية الى التحديث السياسي بمعناه الشامل، وتطوير الثقافة السياسية السائدة واعادة صياغتها بشكل خاص، مع كل ما يعنيه ذلك من تشييد صرح الديمقراطية وتدعيم أركانها. ويتمثل ذلك: أولا، بترشيد بناء السلطة السياسية على أسس قومية عقلانية مستقلة عن كافة الارتباطات التقليدية ما قبل القومية كالطائفية والعشائرية. ففي كثير من الأحيان يؤدي التطابق المتواتر بين الأحزاب السياسية الحاكمة وأقلّيات معينة إلى الحد من تطور الولاء للدولة. وثانيا، بتسييد روح المساواة في الحقوق والواجبات، بما يعني فكرة المواطنة، وتغليب معايير الكفاءة عند توزيع المناصب والأدوار القيادية الإدارية، مما يتطلب المشاركة الشعبية الكاملة في ديناميات العملية السياسية كلها، مما يحيل الناس من مجرد رعايا تابعين غير مبالين الى مواطنين نشطاء فاعلين بامكانهم التأثير في ديناميات اتخاذ القرار السياسي، فضلا عن مشاركتهم في اختيار الحكام وتحديد الاهداف الكبرى(7). وفضلا عن هذا أو ذاك فان مشاركة المواطنين في العملية السياسية تعد دلالة واضحة على عمق التطور السياسي للمجتمع، وتلعب دورا حيويا في ديناميات بناء الأمة، كما أنها تمثل آلية سياسية قديرة لها تأثيرها الفاعل في تطوير وبلورة أنماط جديدة من الولاء السياسي، من شأنها ترسيخ الاحساس بالذات، وتعميق الوعي بالهوية القومية.

ان الطريق العربي الى الديمقراطية يستوجب التمسك بروح الديمقراطية واستلهام دلالاتها العميقة، التي تقوم على حرية الانسان وكرامته، وتتبع

من قيمه وعاداته ومن ضميره الجمعي، وتسمح بالتعددية السياسية التي تتيح المجال للتناوب على السلطة. ويبدو أن الحل الصحيح لمسألة التعددية السياسية يفتح الأفق واسعا أمام حلول وفاقية للتعدديات الأخرى، خاصة منها القومية والثقافية والدينية. وخاصة إذا ما تجاوزت التيارات الفكرية والسياسية انعزالها، واتجهت نحو بلورة توافق على مشروع مجتمعي، يتجاوز الطائفية والعشائرية والانفصالية القومية أو الثقافية بناء على رباط المواطنة في اطار مجتمع مدني، تطلق فيه مبادرات الأفراد والجماعات لما يخدم وحدته التوافقية.

وفي هذا السياق، ولكي لا تبقى دعوتنا الى الديمقراطية فضفاضة، ندرج المعايير والمواصفات التي اتفق عليها أكثر المشاركين في «ورشة عمل» عن كيفية تعزيز المساعي الديمقراطية في الوطن العربي، لعلها تساعدنا في تأسيس الطريق العربي الى الديمقراطية:

1 ــ احترام حقوق الانسان باعتبار أنه هو هدف وغاية أي نظام مجتمعي:

2 ــ التأكيد على المشاركة الشعبية في الحكم باعتبار أن الشعب هو صاحب القرار.

3 ـ السماح بالتعددية الحزبية باعتبارها وسيلة المشاركة الشعبية.

4 ـ تداول السلطة بأسلوب سلمي بين الأحزاب والجماعات السياسية في البلاد.

5 ـ تأمين العدل والمساواة، فلا تكون الديمقراطية نظاما يسمح لفئة صغيرة من المجتمع باحتجاز ثرواته وادارة شؤونه على نحو يتعارض مع مصالح الأكثرية.

6 ـ توطيد الحريات العامة التي لا ديمقراطية من دونها.

7 ـ الفصل بين السلطات، واستقلال القضاء بصورة خاصة، كي يؤمن للناس حقوقهم ضد طغيان السلطة التنفيذية.

وإذا كان الكثيرون منا يندبون حظ الأمة العربية بعد التغييرات التي شهدها العالم، متناسين أن هزائمنا الكبرى تمت في ظل الحرب الباردة بين المعسكرين، خاصة منذ سنة 1967، فاننا نعتقد أن هذه التغييرات، بالرغم مما حملته من ضرر لقضايانا القومية التي لم تكن على ما يرام أصلا، قد جعلت المسألة الديمقراطية، في الوطن العربي، تتحرر من عائقين كبيرين كانا يحولان دون طرحها طرحا جديا(8): أولهما، النموذج السوفياتي، إذ أن انهيار هذا النموذج قد أدى الى سقوط الأطروحات التي كانت تستبعد أو تؤجل الديمقراطية السياسية باسم تحقيق الديمقراطية الإجتماعية والتنمية

الشاملة أولا. لقد اتضح أن العمل من أجل التنمية الشاملة والديمقراطية الاجتماعية، على حساب الديمقراطية السياسية، لا يؤدي الا الى بيروقراطية قاتلة. وثانيهما، أن انسحاب «الاتحاد السوفيتي» من مركز القطب المنافس للغرب سيجعل هذا الاخير في غير حاجة الى «أصدقاء» من النوع الذي نصبهم من قبل حكاما على أقطارهم، أو ساعدهم على ذلك، من اجل ان يكونوا هم وبلدانهم اتباعا له في صراعه ضد «الاتحاد السوفيتي». ولا يخفى على كل ذي بصر وبصيرة ان الديمقراطيات الغربية هي التي انتهجت سياسات استعمارية في أقطارنا، وانها تستخدم الخطاب الديمقراطي الجذاب، الذي امتحن في الجزائر، لاعادة صياغة اقطارنا بما يتناسب مع مصالحها الاقتصادية والسياسية. وهي التي اعادت تكوين نفسها كمعسكر حربي ضد العراق، وتخلت عن مبادئها المعلنة حول الحرية والاخاء والمساواة.

وفي سياق بحثنا عن سبل ارساء الديمقراطية على صعيد الدولة وتكريس قيمها على صعيد المجتمع، يهدف تهيئة أفضل السبل لتحقيق الوحدة القومية والاشتراكية الانسانية الديمقراطية يجدر بنا تحديد اهم التحديات التي ستواجهها:

1 ـ لقد تميز وضع الدولة في الوطن العربي قديما وحديثا، بوحدانية الحاكم، وعليه فان من جملة متطلبات غرس الديمقراطية في المجتمع العربي احداث انقلاب في وعي افراده، انقلاب قوامه الفصل فصلا تاما ونهائيا بين ميدان الالوهية الذي يقوم في عقيدتنا الدينية على الوحدانية وبين الحاكمية البشرية التي يجب ان تقوم على الشورى، مع الارتفاع بمضمونها ووسائل تطبيقها الى مستوى عصرنا، المستوى الذي يتجسم في النظام الديمقراطي الحديث. وتلك مهمة يتطلب انجازها ليس فقط التبشير بالديمقراطية لفائدة الحاضر والمستقبل بل أيضا ـ ولربما كان هذا أكثر أهمية نقد الاسس النفسية والاجتماعية التي قام عليها الاستبداد في ماضينا.

2 ـ وتواجه الديمقراطية تحديا آخر يقع على صعيد البنى الاجتماعية، ويتجه هذه المرة بوظيفة الديمقراطية الى احداث انقلاب اجتماعي يجعل من التعدد السلبي تنوعا ايجابيا خصبا. ذلك لانه اذا كانت «الوحدانية» هي الظاهرة المهيمنة على صعيد المارسة السياسية في الوطن العربي، فان التعدد ـ بل التشرذم في بعض الحالات ــ هو الواقع السائد على الصعيد الاجتماعي. والديمقراطية بما تعنيه من حرية التفكير والتعبير والتعددية الحزبية هي الاطار الصالح لجعل هذه الكثرة تحقق نفسها بصورة ايجابية. ذلك لأنه ليس هناك من سبيل للحيلولة دون تحول الطائفية والعشائرية

والتعددية الاثنية الى أطر اجتماعية للعمل السياسي التناحري الذي يدور بصاحبه في حلقة مفرغة، ليس من سبيل للحيلولة دون ذلك غير التعددية الحزبية التي هي من ابرز مظاهر الحياة الديمقراطية. ان الأحزاب عندما تكون تمثيلية حقا، وعندما تبنني تنظيماتها على اختيارات سياسية وفكرية واضحة، تصبح أداة سليمة طبيعية لاختراق جمود الاطر الاجتماعية التقليدية الموروثة، فتعمل على تطوير العلاقات الاجتماعية داخلها بما تحركه فيها من تناقض في المصالح والمآرب، الشيء الذي يفتح الباب ليس فقط امام عملية الاندماج الاجتماعي، بل ايضا امام الانتقال السلمي للسلطة السياسية والاقتصادية والعلمية من النخب التقليدية، من ارستقراطية مدينية وعشائرية وطائفية، الى النخب الشعبية العصرية المتنامية.

3 ـ تواجه الديمقراطية في الوطن العربي، كما في الاقطار التي رزحت تحت وطأة النظم الاستبدادية الكليانية، تواجه مشكلة الانتقال من هذه النظم ذاتها الى النظام الديمقراطي. ان النظام الكلياني نظام تتماهى فيه السلطة والمجتمع وتندمجان في شخصية الحاكم الفرد. والديمقراطية تقتضي أولا، وقل كل شيء، الفصل بين السلطة والمجتمع المدني. وهذا الفصل يتطلب اما انسحاب كامل الجهاز الاداري وغيره من الاجهزة السلطوية التي يقوم عليها النظام الكلياني، واما دمقرطة اجهزة الدولة من داخلها بصورة جذرية بالفصل بين السلطات الثلاثة التنفيذية والتشريعية والقضائية. كما يتطلب من جهة اخرى الحرص على الا تتحول التعددية الضرورية للديمقراطية الى تفتت لمكونات المجتمع واندكاك لاواصر وحدته، مما يفسح المجال لقيام شكل جديد من الديكتاتورية او لاستشراء فوضى وضعية اللادولة. والحل الأمثل لهذه المشاكل يكمن في الانتقال التدريجي المخطط والسريع وبنى المجتمع في آن واحد في اطار مسار توافق على مضمونه ومراحله مجموع القوى الوطنية، ضمن ميثاق وطني لاقرار الديمقراطية.

ان مسعى الولايات المتحدة الامريكية لاعادة تركيب بنى اقطارنا العربية تحت شعار الديمقراطية وحرية السوق ليس خافيا علينا، ولكنه يطرح علينا مجموعة من الاسئلة الاساسية(9):

السؤال الأول: هو سؤال العلاقة بهذا العالم الجديد. هل صحيح ان هذه العلاقة مستحيلة؟ هل صحيح ان هذا العالم مغلق امام العرب لانهم عرب؟! أم أن الصراع لا يزال مفتوحا، وهو بالتالي يسمح لنا بأن نعيد النظر في كيفية قيادة هذا الصراع؟. هل نحن مجرد ابناء امة كانت، وهي لا تعيش الا على لغة ماضيها، ام اننا نستطيع ان نكون بصيغة جديدة، دون ان نقبل الاقتراح الأمريكي الوحيد المقدم الينا، وهو التحول الى عبيد؟!

السـؤال الثاني: هـو سؤال داخلي وهـو متعلق بكيفيـة صياغـة معادلـة العلاقة بين الصراع مع الغزو والديمقراطية.

السؤال الثالث: هو سؤال الاستقلال. ماذا يعني الاستقلال اليوم؟. وهل مازال هـذا المفهوم محركا للشعوب العـربية، وقادرا على شحـذ العقول من أجل اعادة انتـاجه؟. من الـواضـح ان الصيغ الاستقلاليـة التي ارسيت بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن صيغا قـادرة على الحياة. كانت مجموعة من التسويات المؤقتة، بانتظار الوحدة العـربية. ويبدو اليوم ان الكيانات ترسـخ وجودهـا، بفضل العجز عن مـواجهتها. وأن هـذه الكيانـات او بعضها على الأقل، لن يجد قـدرتـه على الاستمرار دون دعم خـارجي مبـاشر، أي دون قواعـد عسكرية أجنبيـة تحميه، أو تفصله بثـروته عن المجتمعات العـربية الأخرى.

فكيف يكون الاستقلال ممكنا؟!

يبـدو أن مقولـة الاستقـلال بحاجـة الى صياغـة جـديدة، أي الى اعـادة تأسيس الفكرة العربية نفسها.

ان الطريق العربي الى الديمقـراطية ينطلق من ربط ضروري بين مقولتي الاستقلال والـديمقراطيـة. فالاستقـلال دون ديمقراطيـة، أي عبر السيطرة المطلقة للنخب العسكـرية على السلطـة، أعاد ويعيد انتـاج السلطة التقليـدية (العشائر، الطوائف، العـائلات، المناطق... الخ)، وهو بالتـالي يقود الى سلطة مهددة من الـداخل، أي عاجـزة عن مواجهـة الخارج الاستعماري من جهة، وغير قادرة على بناء حديث عقلاني للمجتمع من جهة اخرى. والديمقراطية هي مطلب القوى الاستقـلالية، وهي لا تستقيم فعـلا الا داخل النضال من اجل حرية الامة وسيطرتها على ثروتها.

ويخطىء من يعتقـد ان المسألـة تنحصر في خطـاب أيـديـولـوجي معين، فليست الديمقراطية هي مجموعة القيم الانسـانية التي يركز عليها الخطاب اليبرالي، وان تضمنتها. كما أنها ليست هي الاشتراكيـة وان تضمنتها. وانما هي مقولـة تاريخية يقـوم مثقفو الامة بـاعادة انتاجهـا، في صورة تتضمن اصالـة الشعب ومجمل التـوجهات الحضـارية والمدنيـة المعاصرة. ان ارادة الديمقـراطية تتوقف على الـوعي بضرورتها، وهو بدوره يتـوقف على مدى تأصيلها في الفكر والثقـافة والمرجعية الحضارية بصـورة عامة. ومن دون شك فان الخطوة الاولى في تأسيس الوعي بالديمقراطية هو الوعي بالكيفيات التي كانت توظف في تأجيلها أو صرف النظر عنها، فإذا كان التيار السلفي النهضـوي لم يعاد الـديمقراطيـة بصـورة مطلقة فقـد فضل ترجمتهـا الى «الشورى»، وهو يعلم ان «الشورى» في الفقـه السياسي الاسلامي تعتبر غير

ملزمـة، وأنها خاصة بـ «أهل الحل والعقـد» أي برؤساء القوم وأكـابرهم، وهـو الموقف نفسه الـذي مـازالت تتمسك به اكثـر الجماعـات الاسلاميـة المعاصرة. انها جميعا تنظر بعين الريبة الى الديمقراطية بدعوى أنها لا يمكن أن تسفر الا عن وضـع مماثل للوضـع القـائم، الوضـع الذي يستولي فيه على مقاليد الحكم أفراد من «الأقلية المقلـدة للغرب»، الشيء الذي يعني في نظرها استبعاد الاغلبية الساحقة من الجماهير المسلمة وممثليها الحقيقيين.

واذا كان التيـار الماركسي في الفكر العـربي قد بنـى خطابـه السياسي على تسفيه الـديمقراطيـة السياسية، التي لم يكن يـرى فيها غير الـوسيلة التي تستعملها البرجوازية دفة الحكم.

ومع ان الفكر القومي العربي لم يستبعد الحرية من لائحة شعاراته فان التجارب النيـابية التي عرفتهـا بعض الاقطار العربيـة في اوائل الخمسينات وقبلها، والتي رافقتها بعض مظاهر الفساد، قد جعلت هذا الفكر لا يتردد في الطعن في الـديمقـراطيـة السيـاسية وجـدواهـا قبل تحقيق الـديمقـراطيـة الاجتماعية. وليست الديمقراطية الاجتماعية وحدها هي التي يجب ان تسبق الـديمقـراطيـة السياسيـة، في نظـر الفكر القـومي، بل ان الاولـوية المطلقة بالنسبة الى هـذا الفكر للقضايا القـومية، ولذلك فالمفكـر القومي لا يتردد في تقـرير «أن حـدود الحرية في مجتمعنـا العـربي ينبغي أن تكون في حـدود الدعوة القومية».

ان مثل هذه المواقف لم تعـد مقبولـة ولا قابلة للتبرير، وقد بـدأ الوعي العربي في التحـرر من بعضها، اذ استيقظ تحت وقـع الهزائم المتكررة، على حقيقة أن «الزعيم الملهم» يمكن ان ينهزم او ان يختفي بين عشية وضحاها فتتوارى خلفه الامـال المعلقة ويعود الناس القهقـرى سنوات وعقودا. وكي يصل الوعي العربي الى التحرر من تلك المواقف لا بد ان يكون وعيا مطابقا، عقلانيـا، ونسبيا، وحديثا، ونقـديا، وتاريخيا، وتـراكميا، ومرتبطا بحـركة الشعب العربي وطموحاته واهدافه.

وفي دعوتنا الى الديمقراطية لا يخفى عنا أن التعددية ليست غاية في ذاتها، فـلا يكفي ان تتعـدد الاحـزاب والنقـابـات والمنظمات الاجتماعيـة لتتحقق الديمقراطيـة. فالتعددية امـر واقـع في اقطارنا، سواء تلك التي ورثنـاهـا من الماضي او التي يقتضيها تعدد المصالح الاجتماعية فالقضية هي (10):

كيف يمكن ادارة هـذا التعدد في اطـار مؤسسـات ديمقراطيـة تسعى الى وفاقات تشـارك في التعاقد عليها الاطراف المتعـددة؟. فليس الحل هو القفز عن الواقـع التعددي باسم وحـدة ايديـولوجيـة، تلغى كل امكانيـة للحوار والمشـــاركـــة، ولغيرهما من الاسس التـي ينبني عليهـــا المجتمع المدني

الديمقراطي. ان قبول الحوار ينطلق من التسليم بواقع الاختلاف وبشرعيته، وانطلاقا من هذا الواقع، وليس قفزا عليه، تترجح الاتجاهات الغالبة واجماعات الوفاق العام.

لقد آن الاوان (كما قال د. المنصف المرزوقي) لأن يفهم كل تيار فكري سياسي ان الآخر واجب الوجود وأن الغاءه كالغاء جزء مكون من الجسم: فلقد اصبح واضحا أن الحكم المعياري بالرفض على الآخر لا يلغي وجوده، وأن محاولة استئصاله بالقوة لا تؤدي الا الى تعزيز هذا الوجود. ولأن التجارب انضجتنا والحوار الصعب قد بدأ يأتي اكله بعد بروز ظاهرة التلاقح بين مختلف التيارات، فانه اصبح اليوم من الممكن التفكير في بناء وفاق تاريخي يقوم على: اعتبار الديمقراطية هي المدخل الى النجاعة الفعلية، وهي المدخل الى الوحدة العربية. ومن ثمة نحن مطالبون، في طريقنا العربي الى الديمقراطية، باحتضان مطلب العدالة الاجتماعية، اذ لا معنى للديمقراطية ولا لحقوق الانسان دون التمتع بالحرية الاولى وهي التحرر من الفاقة والجوع والمرض والجهل. ولا شك ان وفاقا تاريخيا مجديا يتطلب القطع مع المنهجية القديمة المبنية على الانغلاق والتعصب ورفض الآخر، فلا بد من البحث عن نقاط الالتقاء لبناء جبهة المجتمع المدني سدا منيعا ضد الاستبداد في الداخل والتبعية للخارج. اذ أن غاياتنا الاساسية هي مشروع حضاري للتقدم والنهضة والوحدة والتحرر من التبعية والهيمنة الغربية والتخلف الاقتصادي والاستبداد السياسي، مما يفرض على التيارات القومية والاسلامية واليسارية كافة ان تجتهد في ابداع هذا المشروع النهضوي. مما يتطلب التوصل الى قواعد وأسس لادارة التعددية في اطار المشروع النهضوي الواحد.

وللوصول الى الحد الادنى المطلوب من التفاهم، من الضروري دراسة الاتجاهات المختلفة التي ميزت الفكر السياسي العربي خلال نصف القرن المنصرم، والتعرف الى برامجها الخاصة بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والاشكاليات التي وقعت فيها مسيرة الاحزاب، والسعي الى تحقيق تعاقد ديمقراطي بين التيارات الرئيسية لخلق الارضية الصالحة للتعاون والوفاق. وفي هذا السياق، تظهر اهمية شروع الاحزاب بوقفة نقدية صارمة، للوقوف على الاخطار ومواطن الضعف في السلوك وفي الاطار المفاهيمي والقيمي الذي انبنى عليه هذا السلوك. وهنا يجدر ان نشير الى اهم القناعات التي يجب مراجعتها(11):

1 ـ الاعتقاد التقليدي بأن البرامج السياسية والفكرية، التي عشنا عليها منذ ثلاثة عقود، كافية لان تجيب عن الاشكاليات والحاجيات الجديدة التي

يطرحها الوضع العربي في لحظته الراهنة. ان هذه لبرامج نشأت في مناخ هيمنت فيه مجموعة من المعطيات السياسية والفكرية لم تعد قائمة فهي نشأت في ظل ظرفية دولية اجازت باستمرار امكانية ادخال قوى الدعم الخارجي في الحسبان. كما ان هذه البرامج نشأت في ظل سيطرة نزعات فكرية تقليدية نهلت منها، بالتفاوت، النخبة التي قادت العمل الوطني العربي. أهم هذه النزعات ـ على الاطلاق ـ هي النزعة الوثوقية النصية. لقد تعاطت الحركة السياسية العربية مع مرجعيتها الفكرية تعاطيا نصيا، وأفرز ذلك ذهنية مطلقة وثوقية، تحاكم الواقع بالنصوص. باختصار، فقد عاشت الحركة الوطنية العربية بفعل ايمانية وسلفية نخبها وقياداتها غربة فعلية عن الواقع. ولا قيمة لاي رهان على غير قوانا الذاتية، على غير تعايش مكوناتنا السياسية والثقافية الحية والفاعلة. ولم يعد من خيار ايضا سوى ان ندفن موتانا الايديولوجيين، لا تنكرا لهم، وانما اعترافا بتاريخيتهم واحتراما لها. لقد نزعنا النصوص من تاريخيتها الخاصة، وعشنا فيها ومنها طويلا، وأدمنا على حقائقها، وقتلنا روح النقد فينا، ففقدنا الواقع وفقدنا النصوص. تدعونا الأزمة الفكرية العامة التي تجتاح الايديولوجيات الكبرى على امتداد العالم الى ان ننتمي الى التاريخ، ونتوقف عن لعبة المرجع.

2 ـ الادعاء المتكرر بامتلاك مشروع شامل ومتكامل للمجتمع العربي، يقدم حلولا لمعضلات الوحدة والتنمية والديمقراطية والتحرير والهوية. ولا يخلو خطاب من خطابات القوى السياسية العربية او برنامج من برامجها لم يقدم نفسه على انه البديل الجاهز. غالبا ما كان يجري ذلك في سياق وبموازاة عملية تبهيت لصورة الآخر، وانقاص من وزنه وقيمته، بل كان يصل الأمر أحيانا بهذه النرجسية السياسية حدا تمارس فيه الاتهامات، ويمتشق فيه حسام الشتم الرخيص. ان التوتاليتارية في السياسة هي الوليد الشرعي للمطلقية في الفكر. ولا مستقبل صحيا للفكر القومي والتجربة القومية الا في الانتقال بهذا الصراع الفكري والسياسي الى مستوى عصري متحضر، ينزع العنف من ساحته ويرسيه على قواعد ديمقراطية واخلاقية جديدة، وعلى مبدأ الاعتراف المتبادل والتعايش وحق الاختلاف. وحين يكف كل منا عن اعتبار نفسه «الفرقة الناجية» نكون ساعتها على اعتاب التاريخ. من ينكر منا ان التيار القومي قدم اكثر من غيره جوابا عن المسألة الكيانية العربية: مسألة الوحدة القومية. ومن ينكر منا ان التيار الماركسي قدم اكثر من غيره تحليلا مفيدا للمسألة الاجتماعية وإلى حد ما للمسألة الاقتصادية: مسألة التنمية. ومن ينكر على التيار الاسلامي مساهمته الرئيسية في طرح مسألة الهوية الحضارية. ثم من ينكر على التيار

الليبرالي انه اكثر من استوعب فينا المسألة السياسية: مسألة الديمقراطية وحقوق الانسان والنظام السياسي الدستوري. ان القوميين والماركسيين والاسلاميين العرب يعيشون الآن لحظة من التاريخ فذة لإطلاق مرحلة من العمل المشترك بينهم، ولتوحيد الوعي العربي على مبادىء مشتركة. فالفكرة القومية استعادت زخمها وصارت جزءاً من التداول الشعبي العام على امتداد الوطن العربي. والاسلام دخل مرحلة الاشتباك الحاسم مع «الآخر» الاجنبي وخرج الى حد ما ـ من دائرة الخلافات المذهبية، والماركسية العربية نشأت لديها فرصة استعادة استقلالها من سطوة المركز الاممي، وبات الجميع امام لحظة الاختبار التاريخي.

ان ابرز خبرات النضال العربي توضح ان التضحية بالديمقراطية، من اجل اية قيمة او مصلحة اخرى، لم يؤد لا إلى تحقيق هذه القيمة ولا إلى تلك المصلحة، وحتى في... بعض تلك الحالات التي شهدت تحقيق انجازات مهمة، فقد امكن تصفية الكثير منها فيما بعد. كما ان الديمقراطية التي مثلت، منذ زمن بعيد، ضرورة قومية، باتت تمثل الآن ضرورة ملحة لاعادة بناء نظام العلاقات السياسية مع عالم حافل بالمتغيرات، وارساء نظام جديد لهذه العلاقات يحفظ المصالح القومية للامة في مواجهة المخاطر التي تتهددها. ولا شك انه خارج اطار مشروع سياسي، قومي ديمقراطي، اطار رؤية استراتيجية منفتحة وعقلانية، تبدو مسألة الديمقراطية فاقدة جوهرها وتبريرها.

ان المأزق الراهن الذي اكتوي بناره شعبنا العربي بأسره، يضع الجميع في مواجهة مباشرة مع مسؤولياتهم التاريخية، وتدفع بهم، في سبيل الخروج من هذا المأزق، الى العمل على صياغة عقد اجتماعي بين كل القوى السياسية والاجتماعية المعبرة عن الاتجاهات القائمة في الواقع العربي، عقد يستعيد الدولة كمجتمع سياسي، ويعترف بالتعددية الفكرية والسياسية، ويكرس الديمقراطية ويعمل على تكريس قيمها في المجتمع، وينصّ على مبدأ الاحتكام الى اصولها والخضوع لنتائج هذا الاحتكام، ويهدف الى تحقيق العدل الاجتماعي ويحترم مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين، ويعمل على احياء قيمة العمل المنتج كعماد لتطورنا. هذا هو سبيلنا للخروج من المأزق وهذا هو مدخلنا الى العصر.

(1) ـ راجع د. جورج قرم: انفجار المشرق العربي، دار الطليعة ـ بيروت 1987.

(2) ـ راجع مقالنا: نظم البداوة النفطية والحركة المضادة للقومية العربية ـ عن: «العرب» اليوم 17 ـ 3 ـ 1992.

وراجع أيضاً: محمد سعد ابو عامود «أزمة الخليج واشكالية الديمقراطية في الوطن العربي» ــ عن: المستقبل العربي، العدد 152، تشرين الاول ـ اكتوبر 1991.

(3) ـ راجع: كيف تعزز المساعي الديمقراطية في البلدان العربية ـ عن: المستقبل العربي، العدد 155، كانون الثاني ـ يناير 1992.

(4) ـ راجع: د. أحمد الجباعي، الكواكبي ـ هم التأخر العربي وهاجس النهضة ـ عن: الوحدة، العدد 81، حزيران ـ يونيو 1991.

(5) ـ راجع: محمد جمال طحان، بدائل الاستبداد في فكر الكواكبي ــ عن: المستقبل العربي، العدد 157، آذار ـ مارس 1992.

(6) ـ راجع: جاد الكريم الجباعي، العلمانية في المشروع القومي الديمقراطي ـ عن: الوحدة، العدد 75، كانون الاول ـ ديسمبر 1990.

(7) ـ راجع: د. السيد الزيات، التحديث السياسي والمسألة الديمقراطية ـ عن: الوحدة، العدد 85 تشرينننن الأول ـ اكتوبر 1991.

(8) ـ محمد عابد الجابري: المسألة الديمقراطية والاوضاع الراهنة في الوطن العربي ـ عن: المستقبل العربي، العدد 157، آذار ـ مارس 1992.

(9) ـ راجع: الياس خوري، الاستقلال والديمقراطية ـ عن: المستقبل العربي، العدد 148، حزيران/ يونيو 1991.

(10) علي أومليل: مشروعية التعدد ومبدأ الحق في الاختلاف ـ عن: «الاتحاد الاشتراكي» المغربية، 9 ـ 2 ـ 1992.

(11) ـ عبد الاله بلقزيز: مستقبل العمل الوطني في الوطن العربي في ضوء التحولات الدولية الجارية ـ عن: المستقبل العربي، العدد 145، آذار ـ مارس 1991.

عبد الله تركماني (سوريا)

---

*عبد الله تركماني مثقف سوري ومناضل ديمقراطي يعيش في تونس ويهتم بقضايا الفكر العربي المعاصر.

شعر

قصائد

عذاب الركابي

(1) اعتراف :

وطني
كانَ آخرَ الشهداءْ
وأبي آخرَ الفقراءْ
وقلبي موجَعٌ،
لمْ ترتّبْ نبضهُ
إلاّ مواعيدُ النساءْ

(2) ابتهــاج :

وضحكتي
في مدن الشمس طفلةٌ
أو قصيدةٌ جديدةْ
وفي مدنِ الرملِ
خنجرٌ
أو طلقةٌ عنيدةْ

(3) سبــاق :

وددْتُ لوْ أضعْ
كفّيَ الرطبةَ... في كفِّ المَطَرْ
وددتُ لوْ أملكُ... قلبَ الريحِ،
لوْ أُسابقُ الشَجَرْ
منْ أجل مقعد لوزيَ
في حدائقِ القَمَرْ

(4) الشــاعــر :

قادمٌ
من رحمِ النارْ
«يولجُ النهارَ في الليل ـ
ويولجُ الليلَ في النهارْ»
وفي اشتهائه النادرِ،
جراةُ الثمارْ
وهي تذهبُ للصلاةْ
في بحارِ النضجِ،
أو تصنعُ موسيقى مداهْ !

(5) اعتــذار :

حيــنَ
تعثّرت الفراشةُ
في ضحكةِ الندى
اعتذرت الوردةُ
عنْ حضُورِ اجتماعِ ساخنٍ
في ثكنةِ العواصفِ

(6) خيانة :

لوْ تَعبتْ
من إحتفالات حُلمكَ... العيونْ
لوْ خانكَ إصبَعُكَ المجنونْ
فكلُ شيء مبهج...
يهُـوَنْ !!

(7) إختيار :

أيهُما تختارْ،
لوْ خانكَ الزَمَنْ ؟
امرأةً
- ريحانيةَ الأحلامِ والخُطى -
أمْ ليلةً مُقلقةً
في شوارع الوَطَنْ ؟

(8) امرأة :

رأيتُهَا
تغازلُ الغيمةَ
وتصطافُ في مدنِ الرياحْ
وَقَدْ شمَمتُ ظلَّها
حينَ تسلَلتْ
منْ بينَ أضلعي
لتُقيمَ مجلسًا
في رئتيَ للجراحْ

(9) إحتجاج :

غضبةٌ للنبتة الظمآى
واحتجاجٌ عاتي الإيقاع
في نبضِ النهارْ

(10) سقـــوط :

قاتلَ
دونما مسدسٍ،
ورايةٍ،
ودونَما جنودْ
ألقى سلاحَهُ تحيةً للذئـبِ،
فالقت الشمسُ عليه القبضَ
خارجَ الحدودْ
كيفَ تحكي الظلمةُ البائدةُ
الألفاظ باسمِ الضوء ؟
ـ ولماذا صافحَتنا الريحُ
في كفِّ الدوارْ

(11) أُمنيـــة :

ـ طفلةٌ منّا أحبّتْ
أن تنامَ الشمسُ
في دفترِهَا،
وترى الصُّبْحَ
وفي كفّيه أحلامٌ،
وحلوى للصغارْ
ـ وتمنَّتْ نخلةٌ
في حيِّنا المتعبِ
أنْ تُـجري
مع اللّه حوارْ

عذاب الركابي
(العراق)

شعر

قرطــاج

إلى عبد الله صولة

محجوب العياري

لقرطاج في القلب نوّارة،
لم تطلها خيول الغزاة القدامى،
ولا خيل من قد أتوا بعدهم،
فهي أعلى
وأغلى
وقرطاج كانت كتابا من الرفض،
مفتاح آياته الغرّ : كلاّ !
وقرطاج سيدة
تعشق الفجر، والبحر،
ألقت إلى النار أطفالها
ثم نادت :
«هي النار أحنى
على القلب،
من (صدر بعل) تخلّى»!
وقرطاج كانت نشيدي،
وكانت
ـ إذا ضاقت الأرض ـ شمسا
وظــلا !
وقرطاج كانت
كانت
وكانت

وكانت ...
ولكنه البحر يسترجع الآن فجر البدايات،
يبكي...
فأبكي :
فقرطاج بوابة للصدى
مهمه أنكرته القوافل
واد من المحل : لا زرع،
لا ضرع ،
لا شعر ،
لا عطر أنثى ...
وقرطاج زيتونة زيتها لا يضيء...
انفتاح على العاتيات المغيرات صبحا.
وظهرا،
وعصرا،
وفي كل آن،
ومن كل فجّ عميق....
عميق !
وقرطاج جيش من الصخر :
أحنو على الصخر،
أستنطق الصخر،
ينتفض الصخر : يبكي...
فأبكي
هي الآن قرطاج تقتات من ثديها،
تنحني كل يوم أمام الأساطيل من
أجل تفاحة ليس تغني...
وقرطاج مطمورة للغزاة القدامى،
ومطمور من قد أتوا بعدهم
وهي نار على عاشقيها.
وقرطاج ما لم تقله الحكايات،
قرطاج ما خطّ مجنونها ذات جرح.
على جذع زيتونة مهملة :
«عيون الفوانيس في الشارع القفر ذابلة،

مطر موسمي يشد المدينة من خصرها،
والشجيرات في قبضة الريح...
رجلان لامرأة تعبران الرصيف
إلى دفء سيارة أدمنتها البغايا...
أنا واقف خلف شباك صمتي : أرى
المشجب الآن يشبهني...
(يصبح التبغ في الليل أشهى)
وإذ أنتشي باحتراق اللفافة،
أشتاق فنجان قهوتها عاطرا كالمساء
الربيعي ...
آه زليخة !
لو أنك الآن عندي،
لغنّيت حزن الفوانيس في الشارع القفر.
لكن !
هو المشجب الآن يشبهني،
غير أني أراها.
أرى كفّها،
جيدها ،
ناهديها...
أرى خالها ناصعا كالليالي التي جمعتنا...
أرى ثغرها،
صوتها،
لثغة الراء رقراقة كالرؤى...
آه، لو أنها الآن عندي، لغنّت،
وغنّيت لليل في الشارع القفر...
لكن !!
هو التبغ في الليل أشهى،
ولا تبغ عندي،
وبيّاعة التبغ عادت إلى بيتها
أول الليل ...
والشارع الآن في قبضة الريح...
ـ هل أوقظ الآن بابا قريبا؟!

أجر الخطى،
يحتويني التردّد قدام باب عتيق،
ـ تمهّل !
لعلّك إذ تطرق الآن تفتك فاكهة الليل
من زوجة أوشكت أن تعضّ المياه
التي أشعلتها...
ـ تمهّل !
ـ تمهّل !
ـ تمهّل... ولا تطرق الآن...
لا تطرق الآن ...
لا تطرق الآن ...
أطرق !!!
هو التبغ في الليل أشهى،
ولا تبغ عندي،
وبيّاعة التبغ عادت إلى بيتها أول الليل،
والشارع الآن في قبضة الريح...
فاطرق ،
ولا تنتظر مطلع الفجر،
فالفجر يبدو بعيدا،
بعيدا،
ثلاث على الباب :
(ليت الفتى كان عشبا،
صدى،
غيمة ،
أو رصيفا،
لكي لا يرى غربة القلب قدام باب عتيق)
....
....
يد تفتح الباب،
تحنو على مشجب في حذاء بليل،
تناولني علبة التبغ : قرطاج !
كـلاّ !!!

هو البحر يسترجعالآن فجر البدايات:
يبكي...
فابكي،
فقرطاج كانت نشيدي،
وكانت إذا ضاقت الأرض شمسا،
وظلا !
وقرطاج كانت كتابا من الرفض،
مفتاح آياته الغرّ كلاّ
وقرطاج سيّدة تعشق الفجر والبحر،
ألقت إلى النار أطفالها،
ثم نادت :
هي النار أحنى
«على القلب من (صدر بعل) تخلى!»
وقرطاج كانت
وكانت
وكانت،
فما بالها الآن أضحت رمادا
يعربد في جوف منفضة
باردة ؟!!!

سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر 1991



صدر
أخيرا

شعر

وصية جدي الثانية

حسين العوري

من آخر الليل العقيم...
أطل جدّي مشرقا
كالحق ليس به ارتيابُ
ارتبك السؤال على يدي:
أو من رماد الحزن تطلع وردةٌ؟!
أيجود بالعسل الذبابُ؟!
فتناثرت كلماته مطرًا..
تهاطل فجرُهُ..
وهفت تعانقه الهضابُ

***

.. يا جدّ ـ قلت له اتئدْ
كيف السبيل الى البلدْ
والدرب تسكنه الذئابُ؟
يا جدّ..
واشتعل الحريق بأضلعي
فأتى الجوابُ:
الفعل مركبة العددْ
والروح بوصلة الجسدْ
وشعار كل سفينة:
سيف يعانقه كتابُ

رادس مليان

ثمار الجسد

بوراوي عجينة

مدّت أغصان يدها المخضّبة بالحنّـاء بعد تردّد طويل بين الرفض والقبول، فأخرجتُ شوقي المخبّأ بين الضّلوع طيلة أيّام الغربة ولياليها الموحشة، وشرع الجناحان المعدنيّان الحادّتان يتنزّهـان نزهة رائقة، بحذر شديد، بين الأنامل الورديّة الشهيـة وما طال من الأظافر الرقيقة الشفّافة. حنّت النفس العاشقة وانسابت متنقّلة بين الأغصان المثمرة، تُقلّم ما نما من أطرافها طيلة غيابي عن البيت بشفرتيّ مقصّ حادّ رقيق كالموت... التذّت النفس بملامسة ثمار أنثوية شهيّة، تُشذّب هذا الطرف وذاك، تذوبُ رغبة متأججة وهي ترقص رقصـات الموت مقوسة حينـا، مستقيمة جانبيـة حينا آخر، منتفضـة في الفراغ، مصحوبة بحشرجة قطع موهومة بين الفينة والأخرى.

واستسلمت الياسمينـة الباسقـة الشابّـة المتمددة على لحاف المرض لبستـانيّها المتيّم يقلّمهـا، ويفعلَ بها ما يشـاء، بين همس الهامسين وامتعاضهم وابتسـامهم. وسبحتُ في همسات معاتبة لذيذة:

ـ ألا ترى الزائرين والمريضات من حولنا...؟

توقّف المعدنُ العاشق عن الحركة وسألتُها بصوت معاتب مكتوم:

ـ لماذا لم تخبريني بما حدث في الإبان؟

ـ وهل استطعنا العثور عليك...؟!

ـ ماذا فعلت بنفسك في غيابي؟

غضّت بصرها برهةً ثم ضاعت نظراتُها بين السقف والجدار المقابل حيث علّقت أزرار وأنابيب انعاش موصولة إلى قوارير وشاشة صغيرة.

ـ وهل كنت أعلمُ بما سيحدث لي بمثل تلك المباغتة؟

تنقّل المعدن بين الخنصر الدقيق والبنصر الذي حضنه خاتم ذهبيّ منقـوش، ثم مر برقّة على الركبة الناعمة ثم لامس الرّبلة البيضاء الممتلئة، قبل أن يحطّ على أصابع القدم

الصغيرة الأنيقة. فضحكت ضحكة طفولية مذعورة وانتفضت انتفاضة حمامة:

ـ كفَّ عن هذا التتيع! إنني لا أحتمل....

رفع البُراق الأبيض غرّته نحو قمّة الجبل. ووطأ عشب السفح، وأخذ يمشي مشيا وئيدا... وأشرف «شدّاد بن عاد» على الوادي الخصيب وتأمل معجبا مدينته «إرم» وقد بدأت أسسها ترتفع رويدا رويدا على سطح الأرض.

وتهيأت الأسنان لتقضم الرّبلة الممتلئة الباردة، وتُشبعها تقبيلا وعضّا ونهشا، لكنها تمالكت وانسابت الروح المعذّبة بين ذؤابتي المعدن اللماع والشفرتين الحادّتين المتعاديتين تداعب أطراف الأغصان المورقة، تشذّب ما طال منها عن الحدّ، متجوّلةً جولة أنس بين ثمار متدليّة تبدأ مكوّرة ثم لا تلبث أن تقصر وتدقّ حتى تنتهي حبّات رمّان ناضجة :

ــ لكم حرمت من هذه القدم الأليفة! يا لها من أغصان بريّة هي الآن بين يدي تضطرب مثل سمكة مذعورة، أود أن أمطرها بوابل من القبل السخية... أن أضع عليها خدّي... أن أحدّثها حديث العاشق المشتاق، الملهوف إلى النّسغ الذي يُغذّيها، الراغبِ في الرحيل بين ثناياها حتى أصل إلى النبع المخبإ الثمين، يضم أغلى ما في الدنيا من كنوز.

واستنشقت ما تبقّى من عطر الحنّاء فدقّت في رأسي طبول القبائل البدائية دقّا، قرعت أجراس الكنائس قرعا، ورشّت أقدام البراق المسرع في جريه مياه سواق اعترضت سبيله. وصرخت جذوعي الجافّة سغبا إليها، فرفعتُ راحتي إلى جبيني، ومسحت حبّات عرق بدأت تنبع منه وتتدلّى.

سألت وهي ترنو إلى عينيَّ الحالمتين :

ـ هل تجد في الغرفة حرارة؟

ـ لا أبدا !

واكتفيت بنظرات عميقة إلى ثمار جسدها، مبعثرة على السرير، وإلى شلال الحسن منسكبا على ساقيها، وقد زال اعوجاجهما القليل، وإلى فضاء بطنها الممتلئة امتلاء يسيرا محبّبا، وأسررت لنفسي : «بل الحرارة في أحشائي» ورسمت على وجهي بسمة قناعا أخفيت خلفها تكشيرة ذئب كاسر يعوي بداخلي. وعدتُ إلى الجنة المشتهاة أمرح على أطرافها غيرَ مكترث بمن حولي... أشربُ من سحر الوجه اللُّجينْ والعينينَ النجلاوين أنهارا... أتأمّل الرقبة الخيزران... أشم أريج الجنة، وحسن الأنوثة. قلت معتذرا :

ـ ما إن بلغني الخبر حتى جريت مسرعا.

لقد تهتُ بين أقدام زائري المستشفى غبارا... تقاذفتني الطرق... طرتُ هباءً منثورا في سماء الضياع... صدمت قدميّ سبل البحث المضْني... تعلّقت بحذاء امرأة متعبة، فأشارت بسبّابتها إلى جناح بناية عالية... سألت نظارتي رجل أنيق فألقتا بي على أطراف الصمت اللامبالي... وصعدت سلّم العذاب أبحث عن رفيقة الدرب التي ما إن بدأنا نسير معا ويضمّنا سقف واحد، وشرعنا معا نتذوّق من رحيق الحياة حتى فصلتنا الأقدار وباعدت بيننا.

سألتها :
- وماذا كانت نتيجة الفحص؟
- لقد التقطوا صورا بالأشعة وستظهر النتيجة قريبا. يبدو أن كيسا صغيرا من الماء نشأ بجانبي ولا بدّ من إزالته.
- ليس الأمر خطيرا إذن؟
- قد تجْرى عليّ عمليّةٌ جراحيّة هيّنة وقد لا تجرى.

وبينما أخذت تقصّ عليّ منفعلة وهي ممدّدة قربي على السرير رحلة مرض مفاجىء مباغت، لمست منكبي بثديها الصغير الكاعب المشاغب، فتذكّرت ازدحام السفر، ووقوفي ساعة على قدم واحدة، في حافلة مشحونة بالخلائق : هذا يدفعني، وذاك يعيدني إلى مكاني، والبيتُ المعدنيُّ الضيقُ يتأرجح بمن حوى ذات اليمين وذات الشمال.

توقّفت الحافلة المترنحة قرب مقبرة المدينة، فصعد درجاتها مكفوفٌ تقدمت به السن، حليق اللحية، بدين، يلبس جبة داكنة مخططة، ويضع على عينيه نظارات سوداء. وهب للواقفين يده ملتمسا مساعدة، فتلقفته أيد سخية، فتحت له سبل الزحام، لتجلسه على أقرب كرسي. فذابت نفسي شفقة عليه ورحمة. امتدت يده المتعثّرة إلى الأمام، كلما أحست بنعومة الأنثى توقّفت متمهّلة قليلا، بل تعمّدت التململ في اتجاهات مختلفة، تجسّ ما اعترض سبيلها، مستسيغة لقاءات محرمة. لملمت نفسي وظللت واقفا أتابع بنظراتي المتفحصة أصابعه الشبقة تلامس زندا عاريا أو خصرا مترجرجا أو ثديا رابيا، ومرحت يده متعمدة في مفترقات أجسام أنثوية غافلة.

وحيرتني لمسات ذاك الشيخ المقرىء الذي لا شك أنه كان قابعا إلى القبور يتلو على مسامع أمواته ما تيسّر من آيات الذكر الحكيم بينما الناس لحاله يرثون. وحينما جلس متعثّرا على كرسيّ أشرق وجهه بالإبتسام.

سألت نفسي عشقا وذابت وجدا، وأنا أطوي الجناحين المعدنيّين القاطعين، وأضعهما على منضدة عالية وقد تبعثر فوقها صحن مغطّى وقارورة ماء وملعقة ومنديل.

نهض الحسن المدود على الفراش... استقام جالسا، وقدم لي باقة أنامل اليدين معا، التي كنت منذ حين أتفنّن في تشذيب أفنانهما :
- ما رأيك الآن؟

لست الأصابع المضخمة بعطر الحياة، برفق ولين... تهتُ بين المعصم الناعم والذراع المستكين... جمّعت روحي باقة عشق ولثمت الثمار المتدلّية، مستنشقا مزيجا من عطر الحنّاء وأريج الأنثى... وسرى في جسدي خدر عجيب...

وقفت في لحظة من لحظات التاريخ الجليل ساكنا أصخُبُ... أحضنُ الواحة البيضاء... اقبّلها... ألثُمها... أنيمُ على وجهي غُصيْناتها الرقيقة الناعمة. وأعدت الكرة مرات فوجدتها تنتظر لمساتي المشتاقة الحبلى بألوان العشق، وتنظر يمنة ويسرة خشية الناظرين :

ـ إنهم يسترقون إلينا النظر...

ـ مالي ومالهم!

وانسابت الاحاديث بيننا لطيفة هادئة، تتخلّلها بسمات وأخبار جادة وأخرى تافهة، ملونة بألوان الصيف. وتعمّدت أن الامس بمعصمي زندها العاري فأصابني عند كل لقاء دوار لذيذ... وخاطبت عيناي المفتونتان بها الدنيا مجسمة فيها.

قدمت لها كيسا من الغلال كنت جلبته معي، وابتسمت ملاطفا، مشجّعا، وانتظرت الشفتين الرقيقتين. وطبعت لها عيناي في الفضاء قبلة شوق طال كتمانها :

ـ لا بدّ أن تغادري هذا المكان قريبا.

سألت برقّة... كالغصن يتثنّى :

ـ وهل غبت عنك كثيرا؟

زمني بدونك أيتها المرأة المرمريّة غبار... طلوع شمسي وغيابها سيان... لقد تعبتُ من لمس الثمار المحرمة... ما أكاد أقضمها حتى تخلّف على لساني طعم الملوحة والعطش والسّغب الآسن. لم تعد الخمور تسكر بي رغم الامتلاء، ولا الفرح يهتزّ لقدومي، ولا الحزن تدمع عيناه لمصائبي... البحار من مياهي جفّت والأكوان من قلقي ضلّت السبل... وجميع الحقائق ضاعت من قدميّ إلا حقيقة جسدك أيتها الأنثى الناعمة... حقيقة ناصعة براقة... لا يصيبها البلى، رغم تعاقب الأزمنة والعصور. لقد صنعتُك يا امرأة حلما من ضلعي المعوجّ ورسمتك خيالا ممكنا ساحرا، وبقيتُ أتهجّد في معبدك الذي تفوح منه روائح الحياة.

ـ لقد طال غيابك عني أكثر مما تظنّين!

واصّاعدت إلى وجنتيها الحريريّتين غلالة ورديّة، وارتباك عذراء بوغتت وهي تستحم عارية...

وأخذت ثمرة إجاص ناضجة، مسحتها على باطن راحتي، وقدمتها لبستان الثمار المتدليّة أفنانه، ومعها روحي متجمّعة شعاع عشق وانتظار.

وشرعت الأسنان الثلجية تقضم جانب الثمرة واللسان الجحيم يلهو على الروابي الصفراء الشهية جيئة وذهابا، يخرج من لجج الجسد الحليب ثم يعود إلى ظلام دافىء سيال.

وخرست لغة كلامي وحلت محلها لغة أخرى.

وبينما كانت تأكل على مهل من ثمار الأشجار، كنت أطعم من ثمار الأنثى. حادثت يدها الرقيقة المدودة... قبّلت جميع أطرافها بحنان ورفق... تاهت أناملي على صفحة الخدّ الحرير، الذي زاده حسنا نمش رقيق أصفر مبعثر كحبّات قمح ضئيلة تكاثرت حول الأنف: لقد حط طائري أيتها الأنثى حيث نثرت له الحب اللّذيذ فألف المقام وحبس نفسه هناك. لقد سكرت بلمس أمواج الشعر الكستنائي المنسدل على الرقبة ناعم النغمات، يميل في بعض تموجاته إلى لون الحنّاء... سبحت بين طياته... أخفيت أنفي في

عطره العجيب، ولثمت أطرافه القمحيّة.

لقد وهبتني اليد والخد والصدر... فضعت في دروب القسمات الأنيقة والبشرة الرقيقة والبياض النقي، وتخدرت بسحر الشباب وحسن الأنوثة الهادئة الصاخبة.

وانصت جسدها النابض بالحياة إلى حيث لمساتي فأجاب بحديث مماثل.

رفعت طرفها نحوي وهمست :

ـ لكم أنت لطيف !

فهمست بدوري :

ـ بل جسدك ...

ورأيتها مثل فراشة منشرحة تعبق بألوان الحياة... كائنا لا تحدّ محاسنه، وصورة في خيال فنان لم ترسم بعد، ضعت بين وهادها ووديانها وينابيعها الثرّة... انسكبت خمرة على بساتينها... سبحت في أنهار الحسن... تدليت في أطراف الخصلات... خدرت عظامي بعطر الأنثى خدرا كاد يرميني على عتبات العدم، ويذيبني عشقا وانتشاءا.

وخلت بيني وبين الوجه الشهد أفعل به ما أشاء... لمست بأناملي الشفتين المنفرجتين برفق... ضممت بها الفم الساكن المتحرك بودّ... ولثمتني الشفتان الدافئتان بلين ملمسهما وسحرهما المسروق من حضرة الزمن الجليل.

وتنقلّت على مرتفعات الخصر الجنة ومنخفضاته، وقد تدفّق شلال حسن، بينما الناس من حولنا يصخبون ويركضون في شتى اتجاهات الحياة، كأنهم يسرعون إلى هدف معلوم.

ثم وضعتُ يديّ على حمامتي الصدر... وضغطت ضغطا رفيقا... فربتا قليلا، واشرأبت حلمة نافرة وتهيأت للطير من عقالها... تسكّعت أناملي حول سلسلة ذهب رقيقة في الرقبة، تتوسّطها دائرة نقشت عليها صورة عذراء. وتعمدت التوقف قليلا عند مقدمة الرقبة الناعمة أمرّر عليها وجدي.

ورغبت النفس في اقتحام ثمار أكثر اختفاء، نائمة خلف منامة الجسد المعطّر... فما إن اخترقت أصابعي الخط الفاصل بين «دنتيلا» الصدار وأصل الثدي الذي لم تلامسه الشمس إلا قليلا .

وهممت بالرحيل في عالم رحب حتى سمعت على مقربة دقات كعب عالية متعاقبة تدقّ البلاط دقا، كالجحيم، تضجّ بها أقدام ممرضة مؤتزرة بالبياض، وأقبلت يد الحبيبة الناعمة إلى يدي تنزعها من مكمنها برفق قائمة حاجزا بيني وما أريد.

ابتسمت البدلة البيضاء وهي تقترب من السرير ابتسامة عابسة، تشي بلوم وعتاب. صفقت تصفيقا متتابعا سريعا. وصاحت وهي تحدّق فينا :

ـ لقد انتهى وقت الزيارة...

فانقبضت النفس لسماعها، واشتدت أوجاع الصدر، وتذكرت غفلتي عن تناول قلبي المتعب، بسبب زحام الحياة، فأشعلتُ سيجارة لعلها تخفف من وطأة العذاب. واصّاعد

الدخان في فضاء الغرفة المعلقة دوائر لولبية متموجة جعلتني أسبح في ذكرى ليالي التلامس الأولى.

توقف البراق عن السير ملتفتا إلى الوراء. هدأت حركة عملة شداد قليلا وتوقفوا عن بناء صرح أراده عاليا حتى السحاب بل حتى قرن الشمس لؤلؤة في أعماق الصحراء جنة الدنيا. تذكرت جسدين عاريين يستحمان تحت مياه متدفّقة ينبعث منهما البخار، ويدي وهي تمرح طيّ الشعر الليلي المبلل تارة، وتلامس الجسد البكر وتتعرّف على ثناياه المكشوفة المباحة تارة أخرى.

ونظرت إلى السيجارة بين أصابعي يشتعل تبغها شيئا فشيئا متحولا إلى رماد، فرأيت فيها أيامي المنقضية ومصيري المتبقى. فانقبضت مني النفس ورسبت في هم ثقيل.

وفجأة أيقظتني من غفوتي وتجهمي عيناها الفاترتان، ووهبتني صدرها الرحب وقد بانت أصول قبابه المرمرية متدلية شهية كالشهد. وسألت هامسة باسمة :

ـ أليست دقات قلبي أسرع من ذي قبل ؟

دسست راحة مشتاقة تحت المنامة، متحسسا بساتين الروابي لم أتريث في الكشف عن جميع مفاتنها... عوى ذئب وضبح ثعلب وتضورت وحوش الغاب في داخلي، وحمحم جواد جامح، في أحشائي... اصّاعدت دماء حارة قانية إلى عينيّ فرأيت بمنظار الرغبة أشباحا وسقفا وجدرانا وأسرّة حمراء تتململ وترتجّ حولي. غمست يدي تحت دنتلاّ العشب النديّ فاستقبلني دفء الحياة مترجرجا عبقا كالجنة.

ـ بل دقات قلبي هي الأسرع!

وتأججت في داخلي نيران أبوة مؤجلة. صرخ أطفال قادمون إلى الدنيا في دمائي الصاخبة، مطالبين بالانتشار في سبل الحياة، مهدّدين بالتمرد عليّ وتدميري إن لم أنصت إلى ندائهم. فلبّيت النداء.

وحاصرتُ جسد حواء الناعم الملتهب الذي أفلت من قبضة الزمن، ورحل مخترقا مصائب وحروبا وآفات فلم يتصدّع زجاجه. أخذت خصرها بين كفّيّ... احتضنته مفتونا... شاء خريفي أن يحادث ربيعها... صفّرت عظامي لعظامها صفير الرغبة الحادة... توسلت إلى حضرة الأنثى المنحنية المستلقية على أعمدة مرمريّة صقيلة أن تزيل عني ضياعي، ولا تبقيني زمنا أطول مستجديا على عتباتها... أن تشرّع في وجهي أبوابها المغلّقة وتدخلني جنات عدن حيث تتدلّ ثمار الجسد شهية مضمخة بأريج الحلم.

وحلّق البراق عاليا في السماء يكاد يلامس قرص الشمس، وأسرع عملة شداد في رفع أعمدة مدينة أرادها جنّة الدنيا :

ـ ماذا تفعل يا رجل؟

لقد هممت بقطف ثمار الجسد على مرأى ومسمع من الدنيا. وها أن غصن أيكة يصدم جبيني... يعيدني إلى أرض الواقع فقلت متضرّعا :

ـ لم تتبقّ لي قدرة على الترقّب والاحتمال.

حينما كـاد البحار يمسك بـالسمكة، ويخلصهـا من الشبكـة، انسابت فـارّة من بين أصابعه، عائدة إلى مياهها العميقة غير مخلّفة له سوى لوعة الفراغ.

تململت جـدران «إرم ذات العماد» فاضت السـواقي وكـادت تغمر بميـاهها قصـور الزمرد والياقوت... صمت الـذئب مختنقا بعوائه المكتوم.... كف البراق عن التحليق وظل معلقـا ساكنـا في السماء... صهل الجواد الجريح وحمحم أنينا متقطعـا تردد صـداه في أنحـاء الكون. وكـادت مني الـرأس تنفجـر وتتناثـر شظـايا مـدمـرة ولكنني تمالكت، وأحسست بموجـة سعال حادة ترفعني إلى قمم أسـوار «مدينة النحاس» الشـاهقة ثم تلقي بي في أعماق يمّ سحيقة.

وامتدت الراحة الرقيقة نجمة ملاطفة وجذبتني خلفها:

ـ تعال معي!

طفوتُ على سطح بحران الألم أروم الوصول إلى أفق النجاة وتركتها تفعل ما تشاء.

انفتحت أمـام عينيّ الملتهبتين خزانـة عريضـة، تدحـرجت بين أقدامنـا منها لفـائف وأغطية بيضاء، وصناديق فارغة. ووجدتني أجرّ كلي الداخل المظلم جرا. غرقت في عينها الرقراقة الصـافية المشعة بنور هادىء التفتت هي إلى فضاء الغرفة الصـاخبة بالزائرين المثرثرين، ورسمت بسبّابتها الرقيقة المخضبـة على فمها علامة عمودية زاخرة، فرسمت الرؤوس المبهوتـة علامة موافقـة وتواطؤ. وانغلق الباب فسكن العـالم من حولنا إلا من نداء جسدينا الساغبين، وضجيج الدماء الفائرة، تريد أن تفرّ من عقالها لتنسكب رقراقة على كف الـدنيـا... وشـاءت نداءات الجسـد التي لا تقـاوم أن يمـرح البراق المجنّح على أعشـاب ليّنة، ويـركض على روابي مـزهرة، ويتنقل بين أشجار مثمـرة، ويطير في حلم معطّر خلف كتلـة هاربة من الضـوء ساطعة في رحاب الكـون ما انفك يريـد اللحاق بها فتهرب منادية إياه ليلحق بها.

قفز الجواد على جداول منحـدرة من الماء الزلال، فتناثرت مياه الشـوق من حوله في كل الاتجاهات زخّات متطايرة في الفضاء.

لقـد التقي أخيرا جسدان، كـان القدر مـا قـد رمى بهما على شـاطىء الحيـاة، فلبس أحدهما الآخر وانصهـرا جسدا واحدا؛ وأخذت أرجـوحة الرغبة تمرح مثل أمـواج عاتية هـادرة... رقصت الكـواكب في أطـراف السماء... هصرت يد الشمس خصرَ القمـر فـلان وتثنّى وسكـرنـا، أو صحونـا، مغمضي العينين أصمّين، لا نـدرك من الـدنيا إلا نـداءات الجسد الصـارخ الـراغب في الضياع والتلاشي لحظة انتشاء مدمـرة... وشعّ جبينها بنور ميـلاد وتكشيرة موت فخشيت فنـاءهـا. وطارت نـوارسي محلّقـة في سمائها وغطّتهـا بأجنحة عريضة ناعمة.... أبحرت سفني تمخر لجج يمّها متصاعدة حينا منخفضة حينا آخر... صرخت أغصاننا المتيبّسة مستجدية نزول قطرات رحمة ظلّت طويلا حبيسة طيّ غمامات العشق... وكاد أحدنا يسحق الآخر عشقا ورغبة.

وصفّرت مراكب الرغبة فينا صفيرها الحاد الأخير، لاهثة متقطعة، وغرق الجسد في الجسد... وضاعت المراكب في أعماق اليمّ السخيّ.

وبينما ارتفع من حولنا همس ولغط وهمهمات، وصلت العاصفة بنا إلى أقصى قمم هيجانها وكادت تلقي بنا في أتون الموت والفناء.

واحتدّت سرعة المراكب أكثر فأكثر... وأسرع العملة والبناؤون والنقاشون في إتمام بناء مدينة لم يخلف مثلها في البلاد... وكاد البراق يطوي بجناحيه قرص الشمس.

همّت البراكين بإلقاء حممها السائلة القانية، وأسرعت الأكف في قرع الطبول البدائية الصاخبة وتهيأت الأرض لتزلزل زلزالها الأخير واستعدت العاصفة لتجود بكل ما في رحمها من ثمار الحياة، وازداد الهمس قربا والحديث وضوحا :

ـ لقد انتهت الزيارة، أفلا تسمعون؟!

ـ أين المريضة ؟

ـ .....

ـ كانت هنا منذ حين...

ـ ....

ـ الطبيب يريد أن ...

وغاصت الأصوات في الصمت المتعمد المكتوم.

وفي لحظة انتشاء سكبت العاصفتان وابل الرحمة مرة واحدة. بينما انفتحت الخزانة العريضة على مصراعيها وانسكبت على الجسدين المستعرين عرقا وبخارا كتلة من النور محرقة.

ضممت راضيا جسد الأنثى البستان الذي رحل معي رحلة فناء وانتشاء، غير مكترث بعيون المتطفلين ولوم اللائمين وهم يثقبون كتفي ويغمغمون... ارتخت أغصاني وارتوت بعد ظمأ طويل. وقبل أن أغيب في غيبوبة عميقة، رأيتها تغطي وجهها المذعور براحتيها الناغمتين. وتهدّمت أنا متعبا على جسدها البستان أكاد أفنيه تحت جسدي.

وساخت إرم ذات العماد في لمح البصر في الأرض حين اكتمل بناؤها العجيب وكاد يسكنها بانوها. ومرت بذاكرتي مشاهد مسرعة كالبرق: طفل حافي القدمين يعبر مياها متدفقة متأبطا محفظة بالية، وشاب يجري فرحا حاملا بيده شهادة نجاح، ورسام قلق يقف أمام لوحته يضع عليها بريشته الخطوط والألوان، ونعش والدي يسير ببطء وخلفه يسير المعزون مطرقين.

رأيت النعش يبتعد ويولّي في الأفق... وقد ظهرت من تحت كفنه راحة تلوح في الفضاء تناديني. ثم تلاشت الصور والأصوات أصداء وخيالات متباعدة... امتدت أمامي مال صحراء قاحلة وفي أفقها البعيد سراب يتلألأ وواحة خضراء.

وفجأة أضاءت الدنيا من حولي بريقا ساطعا، فأظلمت بسرعة ظلمة فغرقت في بحران عميق.

بوراوي عجينة

خريف 1992

شعـــر

المحنّطون في الأرض

المولدي بن عامر فرّوج

كل أشيائنا جاهزه
التراب الذي
يُنبت الزيت والبرتقال
والوجوه التي
ترث الخوف والإنفعال
والزهور التي
مصّها النحل
والنّخل ...
ثم إذا عشّش النحل في النخل
وانتصبت كالسيوف السنابل
إختارها البوم للمشعله
وانتخبنا المجاعة للقافله
هكذا تبتدي المهزله
هكذا تنتهي المساله
كلما ...
حلمتْ ...
فرخة ...
في الصقيع بحبّة قمح
سينعق ...
بومٌ ...
على ربوة قاحله
كل شيء هنا جبل من رصاص
المياه التي فجرتها السواعد

والصخور التي...
ظل سيزيف يدفعها ...
انقلبت
والرياح التي ...
واجهت سدّ غيلان
إنتحرت
كل شيء هنا علب
... الجنين التي انتظرته القبيلة
لما يزل مخبريا
وابي... آه حتى ابي
كان علّمني أن أظل صبيا
والمدرس أطعمنا علبا متحفيّة
كل شيء يسبّح بالجاهليّة
نرث الصبر...
في سرة
ثم نمشي إلى الصومعه
ونصليّ صلاة الجماعة والفرد
كي نستعيذ من الزوبعة
نرث الشعر...
في حيرة
ثم مثل البخور الذي فاح
يحترق الشعر توقا
إلى المعمعه
نرث الجوع...
مثل القناعة...
كنزا ...
من الوهم
والشعب أسطورة جائزه
كل أشيائنا جاهزه
فالسواكن ساكنة
والتململ في جسدي مستحيل
والبلاد التي ههنا
البلاد التي ههنا
... لم تزل هكذا ...
منذ جيل

شعر

الغجريّــة

عبد الستار العبروقي

حفيدةٌ من آثروا...
ان يعيشُوا اضطراما
على ضفّة العصر...
بين احتراق الصدى بالأغاني
ومدِّ الخيال
تجيءُ مع الفجر همسًا..
يؤنّث خطو القوافل...
بالرسم واللون والكلمات
وإذ تتلاشى الغمائمُ..
تنداحُ في لجّة الهوسِ موجًا..
من الرغبات
أهاليها تتلاحقُ..
تنثالُ في ناظري القا..
تتهدّل، تنشرها اللحظاتُ..
أريجا، براعمَ شوق..
صدى وردة لا تباحُ
تحاصرني في الضحى..
عندما أتشظّى..
تحث احتدامي
وتدفعني، لانتشال السؤال..
من الشجن المترقرق تحت الكلام
فلا أتبلّد، أمضي الى هوّة الصمت
أقتحم الليل..
اجترحُ الهمس من شفتيه..
نبيذ القوافي..
وأسطورة العائدين من البدء..

قبل انهيار الجهات
وإن شحّ يومي..
أو اجتاحني الإهتراء..
أعود إلى راحتيها، لحنائها والرسوم
لما خبّأته باوراقها، والقداح
فلا تتجهّم..
تمزجني بثراها
لأصعد من أرضها، مثل سيزيف نهرا..
إلى قمة البوح..
امتشق الحلم ثلجا..
أروي به الضما المتكلّس في أرقي..
منذ أن تركتنا القوافل في مدلهم الهجير
يحاصرنا الملح..
مشدودة للهروب
قواربنا والمرايا.
تعبت من الشوق، لا ينحني بدمائي
يلاحقني السفر المتجذّر في أضلعي
يتسامق عند المساء..
يشجرني برؤاها..
ولا يتوارى
أعود لأوردتي، للخلايا، لما بالحشا من طقوس
لأنجو من حجر يتمرأى
بزاوية الانتظار..
أنام بذاكرتي..
أتكوّم..
لكنها لا تنام.
ترفرف حولي
تجمعني شفقا بالجرار
تدثّرني بالحكايا
وتاخذني من جراحي
إلى خيمة الغجر القادمين من النبع..
والعابرين إلى جزر التيه..
تلك التي نسجتها..
باعماقنا..
عربات الرياح

مارس 1993

حوار مع الأديب الجزائري وسيني الأعرج

الأستاذ الأديب الجزائري المعروف وسيني الأعرج يزور تونس هذه الأيام بمناسبة الندوة الدولية التي تنظمها اتحاد الكتاب التونسيين تحت عنوان : «مرجعيات الفكر العربي المعاصر : التاريخ ـ العقل ـ المقدّس».

والأديب وسيني من مواليد 1954 بالغرب الجزائري، وهو أستاذ بجامعة الجزائر المركزية ـ يدرّس مناهج البحث الأدبية ونظرية القراءة، ويشرف على فرقة بحث «الرواية الجزائرية : المجتمع والأشكال» وقد أنجزت 3 أعمال هي : الرواية والمجتمع ـ الرواية والمخيّلة ـ الرواية والسرد ـ مع مشاريع أخرى ستنجز في نفس الإطار كالرواية واللغة، ودليل للرواية الجزائرية.

ووسيني الأعرج هو رئيس تحرير مجلة «المساءلة» الناطقة باسم اتحاد الكتاب الجزائريين وأمين عام مساعد للاتحاد.

أعد رسالة ماجستير ببحث عنوانه «اتجاهات الرواية العربية في الجزائر» وصدر في كتاب ودكتورا دولة بدمشق تحت عنوان : «نظرية البطل في الرواية» وصدر منها جزء واحد تحت عنوان «الفردية والرواية» عن سلسلة الكتاب الجديد التي يديرها الاستاذ محمد دكروب.. وقد أصدر الكتب التالية :

الدراسات :

- التجربة الواقعية عند الطاهر وطار
- النزوع الواقعي في الرواية الجزائرية.
- الجذور التاريخية للواقعية الاشتراكية في الرواية الجزائرية.
- سؤال الرواية .

الروايـــة :

- وقائع أوجاع رجل غامر صوب البحر. جزأين، دمشق، الجزائر.
- نوّار اللوز أو تغريبة الصالح بن عامر الزوفري. الحداثة بيروت.
- مصرع أحلام مريم الوديعة.
- ما تبقى من سيرة الأخضر حمروش.
- ضمير الغائب. اتحاد الكتاب العرب سوريا.
- ثلاثية : فاجعة الليلة السابعة بعد الألف :

الجزء الأول : رمل المايه.

الجزء الثاني : نهج الغواية

الجزء الثالث : متاهات الجنة.

- سيدة المقام أو جنازات الجمعة الحزين.

المجموعات القصصية :

- ألم الكتابة عن أحزان المنفى.
- احميدة بنت المسيسردي الطيب.
- أسماك البرّ المتوحّش
- نوره والسمكة الصغيرة للأطفال.

وسيصدر له قريبا دراسة تحت عنوان : بيان مضاد للرواية : أسئلة جديدة تطرح على الرواية العربية.

إذن التقينا الأديب في هذا الحوار :

□ **ما هو موقع الرواية الجزائرية بالنسبة للتجربة الروائية العربية؟**

* نستطيع أن نقول أن الرواية الجزائرية لها موقع واضح في المجال النقدي العربي منذ الستينات خصوصا مع كتاب اللغة الفرنسية أو ما نسميه الآن الرواية الكلاسيكية مثل : كاتب ياسين، ومحمد ديب، ومالك حداد... إلخ، والذين شكلوا النصوص التأسيسية الأولى للرواية الجزائرية التي قدمت القضية الوطنية في أجلى صورها النضالية سواء بالنسبة للانسان الغربي أو الإنسان العربي، وهذا في الحقيقة مفهوم لأن في ذلك الوقت لم تكن هناك رواية بالعربية ولكن القارىء العربي اكتشف نصوصا متميزة، لها ظلالها الآن في الأدب العربي كما يقول «حنامينة» وهو يتحدّث عن ثلاثية «نجيب محفوظ» : «إني أشعر ببصمات ثلاثية محمد ديب ترفرف على هذا النص». وهذا يعني الكثير طبعا. أولا للقيمة الفنية لهذه النصوص، وثانيا للقيمة النضالية والشجاعة وثالثا لكون هذه النصوص فرضت نفسها دوليا وليس عربيا فقط، ثم إن هذه النصوص مبنية أصلا على تراكمات أدبية عميقة تبدأ من اللحظة الاستعمارية التي جاء معها ما يسمى بمدرسة الغرائبية ثم بعد ذلك تطورت هذه المدرسة إلى ما يسمى بمدرسة المتجزئرين ثم بعدها جاءت مدرسة الجزائر التي كان يرأسها قبل أن تخرج من رحمها المدرسة الوطنية التي تزعمها محمد ديب وكاتب ياسين. إذن لهذا التراكم قيمته

في التاريخ أما الرواية المكتوبة بالعربية فلم تصبح قوة فاعلة بالنسبة للحركة النقدية الا مع بداية السبعينات عندما ظهر جيل الطاهر وطار وبن هدوقة الذي قدم نصوصا جريئة وشجاعة في علاقتها بالتاريخ ونقده ولكن مع الجيل الجديد خرج النقاش من دائرته التاريخية الوطنية الى نقاش أعمق يتعلق باشياء جوهرية في الكتابة الروائية مثل اللغة ــ البنية، التمايز... وكلها أسئلة طرحت مع الجيل الجديد الذي له ما يقابله من نشاط حتما في الوطن العربي مشرقا ومغربا أعتقد أن هذه الاسهامات لبقطاشي مرزاق وخلاص جلالي والطاهر حاووت ورشيد بوجدرة، ورشيد ميموني وغيرهم تؤهلها لأن تكون نصوصا ذات قيمة ليس عربيا فقط ولكن عالميا أيضا لأن جزءا من هاجسها المركزي هو تحقيق هذه الخصوصية مثل ما حدث في رواية أمريكا اللاتينية.

□ لكن بعض النقاد والمنظرين يخرجون النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية من دائرة الأدب العربي. على أساس أن اللغة هي عنصر رئيسي لتحديد هوية الأدب والفن عموما؟

* هناك مدرستان فعلا تتنازعان على الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مدرسة تعتبره جزء من أدب «مدرسة الجزائر» L'ecole d'Alger أي أنه جزء من الأدب الفرنسي.

وهناك مدرسة تحاول أن تأخذ بعين الاعتبار المضامين التي عالجها هذا الأدب والظروف التي كتب فيها والذين كتبوا هذا الأدب فتعتبره أدبا جزائريا يحتاج الى أن يعود إلى لغته الأصلية وهذا ما قامت به المبادرة الشرقية مثل «سامي الدروبي» و «جورج سالم» و «مالك أبيض العيسى» فأعادوا النصوص الى أصلها العربي ولاحظوا أنها لا تختلف عن النصوص العربية في أي شيء بل أنها تمتلك حساسية زائدة تجاه تفاصيل صغيرة لحياة الناس والمجتمع ولكن ــ وهذا رأيي الخاص ــ يمكن أن نقول باختصار أن هذا الأدب أصبح جزائريا منذ أن قطع مع المدرسة الكولنيانية والمتمثلة في اتجاهاتها الثلاث السابقة له : الغرائبية، المتجزئرين، مدرسة الجزائر. وأصبح أدبا مرتبطا بالقضية الوطنية وتحمل مقابل ذلك كل النتائج في وقت انه لم تكن هناك لغة عربية يمكن أن يعبر من خلالها الكاتب الجزائري عن وضعه فلجأ إلى اللغة الفرنسية، إذن اعتبار هذا الأدب أدبا جزائريا ليس مسألة شوفينية أو سياسية أو إيديولوجية، ولكنها قضية تتعلق بالمحتوى الأساسي والجوهري لهذا الأدب وحتى ببعض بنياته التي كانت تحاول أن تعطي للبحث اللغوي في مجال الكتابة مجالا معينا بحيث أن اللغة الفرنسية تفقد بعض دلالاتها ومعانيها عندما تخضع إلى نمطية الجملة العربية وهذا ما نجده عند محمد ديب خصوصا فإذن الاختيارات بالنسبة للمدرسة الوطنية كانت «قليلة ومحدودة بينما الأمر يختلف الآن بالنسبة للجيل الجديد الذي تكون بمدرسة وطنية مع كل ما يمكن أن يقال عن هذه المدرسة ومع ذلك يظل جوهر هذا الأدب جوهرا جزائريا ومن غير المعقول ان نقصي نتاجا بكامله بسبب اللغة. ولكن يمكن أن نطرح السؤال بشكل آخر إلى أي مدى استطاع هذا الأدب أن يجسد جوهر الاشياء في الانسان الجزائري. فإذا كانت المدرسة الوطنية المثلة في كاتب ياسين ومحمد ديب ومولود

معمري قد التزمت بالمضامين الوطنية، فجزء من الجيل الجديد مثل رشيد ميموني لا تهمه المسألة الوطنية إلا كوسيلة، بحيث تصبح صورة الانسان الجزائري أو العربي بصفة عامة صورة مضاهية للقرد الذي يعرض في سرك، هدفه إضحاك الناس وإسعادهم والدليل على ذلك رواية «شرف القبيلة» وهي نظرة تعيدنا فعلا إلى المدرسة الغرائبية التي كانت تصور الانسان الجزائري بنفس الصورة وهذا النوع من الأدب يجب أن ينتقد بصرامة وموضوعية وعلمية وهدوء.

□ **عندما نتكلم عن الأدب لابد أن نتطرق إلى إشكالية مزمنة ألا وهي علاقة الشكل بالمضمون، كيف يجري الامر في الجزائر.. هل هناك تفضيل لطرف على آخر؟**

* في وضع مثل الوضع الجزائري يمتلك بعض الخصوصيات ربما تختلف عن غيرها من البلدان العربية، فالإستعمار كان استعمارا استيطانيا وليس حماية وعندما أقول استيطانيا فمعناه العمل على تذويب كل عناصر الشخصية الوطنية وبشكل مبتذل حتى صار الشعب الجزائري شعبا بدون لسان. في مثل هذه الظروف عندنا يمتلك الشخص ـ الذي لم يكن أمامه إلا تعلم لغة واحدة ـ وهي اللغة الفرنسية ويكتب بها نصوصا أدبية وهذه النصوص تقف على الطرف النقيض من الأطروحة الاستعمارية، لا يمكن في نظري الخاص إلا أن نضع هذه النصوص في موقع مخالف على الاقل للنصوص الفرنسية سواء في تصورها للشخصية الجزائرية ومحيطها وخصوصياتها وحتى كيفيات التعامل معها... مثلما كان يقال: «ألا يمكن لكاتب فرنسي مدجج بالمفاهيم الاستعمارية أن يكتب عن الأهالي "Indigènes" مثلما يكتب الجزائري الذي كان واحدا من الأهالي». إذن التأكيد على الموضوع في تلك الفترة كان أساسيا، أما بالنسبة للجيل الجديد فالأمر بالفعل محرج. هناك الآن مؤسسة ثقافية تشتغل على اللغة الفرنسية بكتابها وقرائها وإذاعتها ومراكزها وجرائدها، ولها جذورها ودعامها.

□ **في هذه المرحلة بالذات ينظر البعض إلى أنه زمن الرواية، في حين يذهب آخرون إلى أنه لا مناص من تداخل الاجناس الأدبية لتصب في جنس واحد ما رأيك ككاتب روائي، وناقد مختص ؟**

* ج : من حيث المبدأ أتصور أن لكل جنس مكانه في التعبير، أي أن الجنس التعبيري هو في نهاية المطاف وسيلة لإيصال قضية ما. إنما هناك حقيقة موضوعية مرئية تحتاج الى تقربات منهجية من بينها مقروئية الرواية. ولكن هل الرواية ـ وهذا هو السؤال المركزي ـ ما تزال رواية بالمعنى الكلاسيكي التقليدي كجنس متفرد بخصوصيات وتميزات بنيوية أم أنها أصبحت شكلا قادرا على استيعاب كل الطاقات الابداعية بما في ذلك الشعر والمسرح وغيرها فانا أقرب إلى هذا الرأي بل وأقول أن الرواية صارت نص النصوص أي أنها النص الذي يملك طاقة لاستيعاب الشعر في المجال اللغوي، مجال تطوير المعنى وإحراجه ومجال استيعاب الحالة الملحمية للمجتمع وتحولاته الخطيرة وإذن عندما نقرأ الرواية فنحن نقرأ بالضرورة هذه النصوص التي تعود تقريبا إلى أصلها الاول الذي خرجت منه الاشكال وهو الاصل الملحمي ولا غرابة أن نقرأ رواية ملحمية مثل «مدن الملح لمنيف» و«مدارات الشرق» لنبيل سليمان و «حكاية بحار»

لحنامينه وغيرهـا.... وأنا اعتقد ضمن هذا المنظور ان الاجنـاس الادبية وإن حافظت على بعض تمايزاتها البنيويـة فهي ستندمج حتما في هذا السياق الذي يعطيها فـاعلية جديدة وهو سياق الرواية.

□ **نصل الآن الى موضوع آخر، شغل النقد والمنظرين والمبدعين. المرأة وعلاقتها بالكتابة، هل ما زالت المرأة تصلح كموضوع للأدب والفن عموما؟**

* موضوع مهم. وما ألاحظه أن في الوطن العربي يغلب طابع الرمزية على موضوعة المرأة بمعنى تتحـول المرأة فجأة إلى شـارة للـدلالـة على الـوطن والمجتمع، عن الـرفض للظلم... ولكن لماذا لا تكـون المرأة هي المرأة بحيـاتها بغنـاها، بجماليتهـا وبإنسـانيتهـا وبجنونها. الشيء المخفي وراء التأويل الرّمزي أراه شخصيا دينيا بحيث أن وجود المرأة كـكيـان بشري وإنساني يحرج الـذكور ويحرج المنطق الـديني الذي لا يقبل بـوجودهـا كمجال للتحرر والحب والانسانية والانعتاق ولهذا يهرب إلى الرمـزية. هذه الرمزية التي أفرغت من معناها وأصبحت محتوى لا يبتعد كثيرا من حيث الجوهر عن خطاب الفقيه . وإذا كنت لا أرفض الـرمـز من حيث المبدأ إلا أنني أحترز كلما سمعت هـذا التأويل. إن نساء حنامينة رائعـات في حالة اخفاقهن ونجاحهن من الناحية الانسانيـة، نساء الطاهر وطـار في عرس بغل كـذلك. وغيرها. نسـاء بن هدوقـة كذلك لا يقلن روعـة. ولكن كلما استيقظت عقلية الفقيـه محيرّة كل ما هو إنسـاني باتجاه ديني، كلما ابتعـدنا عن العمق الانساني للمرأة وبـالتالي عن العمق الأدبي للروايـة، وفي هذا الاطار بدل مـواجهة الفكر الديني المظلل والمتخلف يتم إخلاء السـاحة من النضالية والمقاومة لحسـاب هذه العقلية من خلال عملية الترميز التي تشكل متكأ للهرب من مواجهة الحقيقة.

□ **هـذه المواقف والـرؤى النقديـة هل حققتهـا أو حققت بعضهـا على الاقل في كتاباتك الابداعية؟**

* ج : أولا أريد أن أوضح ان تعاملي مع النقد هو تعامل هاوي وليس متخصصا أي أن المركز بالنسبة لي هو العمل الابداعي وعندما لا يجد الابداع إجاباته المختلفة والمعقدة من المعضلات المتعلقة بالذات أو بالنص التجيء إلى النقد لأبحث عن متكأ يسند من جديد النص الروائي. لكن يظل البحث في إطـار مناخـات الحداثة بالمعنى العـام عن هذا الشكل المتمايز الذي ذكرته قبـلا. يظل هاجسا مركزيا وحاسما بالنسبـة لكل إبداعاتي الروائية وخصوصا منذ 5 سنوات بحيث أني فقدت لـذة الدهشة تجاه الاشياء وأنا في حاجة إلى خلق دهشـة من خلال اللغـة والابداع والامـر ليس هينا لأنـه الحلم سيصبح مشفوعـا بحالـة واعية خـارج لحظة العفويـة ومع ذلك أبحث مثل بقية زمـلائي من الروائيين في الجزائر والوطن العـربي عن هذه اللـذة المفقودة التي إسمها الـدهشة، أعطيك مثـالا أنا الآن بصدد الانتهاء من ثلاثية إسمها: فاجعـة الليلة السابعة بعد الألف. انطلقت فيها من ألف ليلة وليلـة لا كوقـائع ولكن كبنية ذهنيـة، كمنظومـة سيميائيـة متحكمة في التفكير والابـداع. قد لا تهمنـي كثيرا شخصية «شهـر زاد» أولا لانها لم تعـد مـدهشة لكثـرة استعمالها ثم لاجابتها عن الاسئلة الحساسة في حدود ما يسمح به السلطان بينما الذي يدهشني أكثر في نص الف ليلـة وليلة هو شخصية «دنيا زاد» التي ظلت صـامتة طوال

الالف ليلة وليلة ولم تنطق إلا ببعض الكلمات، وهذا أمر إستثنائي في مجتمع يثرثر كثيرا (شهر زاد) ويقمع بشكل أكثر (دنيا زاد)، ولهذا اعطيت في الثلاثية وفي ظرف ستة أيام فقط الفرصة والفضاء «لدنيا زاد» كي تقول ما لم تقله «شهر زاد» أي أن تتحدث عن ثورة الزنج التي لم تذكرها «شهر زاد» أبدا، عن القرامطة عن الحلاج الذي مزّق، وعن السّهروردي وابن المقفع الذي شوي لحمه وهو حي، عن تفاصيل العصر الذي نعيشه. ولهذا أنا أشعر مثلا أن الف ليلة وليلة كنص تراثي وكبنية دلالية وفر لي إمكانات كثيرة للتعبير والتخيل بدون أن يعني ذلك إلغاءا للعصر، بل لقد انخرطت في العصر انطلاقا من معضلة «دنيا زاد» التي ما يزال تاريخنا يعيد انتاجها باستمرار هذه واحدة من الأسئلة التي يمكن ان اقول بأني بدأت استنفدها أي بدأت دهشتها أو بدأ عنصر الدهشة يغادرها ولهذا أنا باستمرار أبحث عن شكل تعبيري جديد. أي أبحث عن كل ما يسمح لي بتجديد وتعميق عنصر الدهشة عندي وعند قارئي.

□ ما هي حسب رأيك آفاق الرواية العربية؟

* ج : يبدو لي أن أهم شيء يمكن أن تطرحه الرواية العربية على نفسها هو السؤال التالي : بعد قرابة مائة سنة من الممارسة الروائية أين وصلت هذه الرواية. حتما سنقول بأنها قطعت رحلة طويلة وأسست شيئا مهما من خلال العلاقة المثاقفتية مع الغرب ولكن هل بعد كل هذا التراكم (وفترة قرن لها قيمتها في تاريخ الاشكال الادبية) استطاعت الرواية العربية أن تؤسس لخصوصيتها والخصوصية هنا لا تعني مطلقا الانفصال عن المنجزات الانسانية ولكن في الوقت نفسه لا تعني أبدا تبرير غياب الذاتية الابداعية التي تنقصنا وهي مركز التمايز في المجال الابداعي ولهذا فقراءة تراكم مائة سنة من الممارسة الابداعية والفكرية كذلك لا يضر مطلقا بل ان منفعته كبرى خصوصا في هذا الزمن الذي نعيشه والذي اختلت فيه الكثير من المسلمات التي كان يغطيها الخطاب السياسي والايديولوجي المجوف. ومن إيجابيات مأزق الحيرة التي نعيشها هي أن نعود الى ذواتنا إبداعا وفكرا لا لتأكيد حالة الرضا الذاتي ولكن للدفع بهذا الرضا الذاتي إلى حالة الاختلال وافتقاد المعنى والمساءلة والبحث عن البدائل الممكنة من خلال الهدوء المعرفي وبعيدا عن الحالات الاخلاقية والتي لم توصلنا الا إلى مزيد من الخراب والطمأنينة الوهمية.

□ الكتابة هي في آخر المطاف محاولة للإجابة عن سؤال وجودي عميق، لماذا نحن هنا... ما الحياة.. كيف وبماذا نعيش.. ثم ما جدوى وجودنا أصلا؟! نفكر، نناضل، نمارس قناعاتنا.. ثم فجأة ننسحب؟

* السؤال عميق ويكتسي طابعا وجوديا إنسانيا ولاني لا أملك الاجوبة المطلقة، ذلك انني لست إلاها أملك حق صناعة الاجوبة انطلاقا من الحالة الابداعية واللغة في هذا المجال هي هاجس للكتابة وبالتالي لتجاوز معضلة اليأس ومعضلة الموت. الانسان كما أعتقد عندما اكتشف اللغة ثم الكتابة ، كان ذلك ليدون ذاته أي ليؤسس خلوده وهذا وهمي الجميل، حيث ان الكتابة تصبح حالة طقوسية تبدأ من اللحظة الصوفية التي تخترق فيها الحميميات إنطلاقا من بياض الورقة وصولا إلى التوغل داخل أعماق الذات،

فاللغة الروائية خصوصا والشعرية استثناء ليست كيانا جاهزا كما يفعل الروائيون الكلاسيكيون ولكنها كيان يتكون معنا بين اللحظة والأخرى، بين الهزمية والهزيلة بين الانتصار والانتصار، بين الاشراقة والاشراقة، وبين الحب والحب، وبين الكلمة والكلمة، وبين الجملة والجملة، ولهذا أنا أعتقد أني من جيل لا يملك شرعية ثورية وسياسية، ولكني من جيل لا متكأ له إلا اللغة أي لا خيار له إلا وضع المطلقات والثوابت مثار تساؤلات والخروج من هذه التساؤلات على الاقل بمشاريع لأجوبة ممكنة وقد يكون النص الروائي جزء من هذه المشاريع الممكنة. وفي هذا السياق يمكنني أن أضيف جملة جوهرية وهي أني عندما أشعر أني أفقد علاقتي باللغة ككيان متحرك في كل لحظة تصاب معانيه للاحراجات المتعاقبة يبدو لي أني وقتها سأنتحر!

□ في هذه الظروف، كيف ينظر وسيني الأعرج إلى مستقبل الحقل الثقافي العربي؟

* ج : الحقيقة لست عالما في الاستراتيجية ولكني على الاقل كإنسان عربي يحمل هواجس مجتمعه المركزية أستطيع ان أقول أنه لم تبق أمامنا الآن إلا الثقافة بمعناها المتنوع لأننا طوال الازمنة الماضية عشنا وضعا لا ثقافيا أي وضعا غير حضاري على الاطلاق، وإذا أرادت هذه الشعوب العربية بسلطها المتعاقبة الدخول الى التاريخ فلن تدخله من الابتذال السياسي والقمع ولكن ستدخله عن طريق العنصر الثقافي الذي يقتضي منها حتما تغيير آلياتها التفكيرية وإلا على الدنيا السلام. فالثقافة هي العنصر الاستراتيجي للتطور أي القدرة على امتلاك الرؤية والمنهج والاداة والتصور والشجاعة على طرح كل الأسئلة المستعصية والمخفية والمسكوت عنها، أي أنه لم تبق لنا إلا الثقافة بمعناها المتنور كشعاع صغير وسط ظلام أصبح أو يكاد أن يصبح معمما.

أجرى الحوار :
سكرتير التحرير
كمال بوعجيلة

مقتطف من رواية

التّلاعب

هشام القروي

في نهاية هـذه الصبيحة من شهـر نوفمبر 1979، تلقّى السيـد × مكالمة هاتفية من سليم اللوز.

ـ قل لي أيها الصديق، هل لديك نصف ساعة تخصصها لي؟
ـ متى ذلك؟
ـ اليوم، إن أمكن.

تطلّع السيد × في الدفتر الذي أمامه. السكرتيرة سجلت له ثلاثة مواعيد. فكّر أنه بالإمكان الغاء أحدها، قال :

ـ موافق. أتريد أن نتغدّى معا؟
ـ شكرا، ولكني لا أستطيع أن أجيئك على الفور.
ـ طيب هل تناسبك الساعة السابعة مساء ؟
ـ تماما، أشكرك.
ـ إذن، إلى اللقاء في مكتبي هذا المساء.

ومـرّت فترة بعد الظهيرة بسرعـة : بعض الشـؤون العـادية، اتصـالات هاتفيـة، برقيات ورسائل، مـواعيد مع بعض البنوك، استقبـالات للزائرين، اتصال تلفوني من بريجيت، تقول إنها لن تأتي إلى موعدهما في الغد، بسبب عمل مفاجىء في التلفزيون.

حوالي الساعة السابعة، أعلنت السكرتيرة قدوم السيد سليم اللوز.

ومـا هي سوى لحظـات، حتى رآه يدخـل، بقامتـه المديدة، لابسـا بدلـة رمادية اللون، وربطة عنق من الحرير الأزرق على قميص أبيض، وفي زاوية فمه سيجار كبير من نوع الهافانا. مدّ نحوه يده، فوقف السيد × وصافحه،

داعيا إياه للجلوس.

كانت عيناه النفّاذتان تدوران في محجريهما، وتجولان متأمّلتين في أثاث المكتب وزخرفه. وما لبث ان توقف بصره برهة على لوحة زيتية من نوع «الكولاج» - أو التركيب — تتصدّر جدار المكتب، خلف السيد - بالضبط، وتمثل منظرا غريبا يجمع بين أورسن ويلز وأحد رعاة البقر الامريكيين، وجوادين جامحين، وسلحفاتين كبيرتين، على خلفية منظر طبيعي عادي : سماء زرقاء تعبرها غمامات بيضاء.

قال سليم :

- لم أكن أعرف أنك تحب إيرّو.

قال السيد × : - وكيف لا أحبه؟ إنه آلة.... آلة عظيمة تحول كل شيء تلتقطه. عقل يعمل عمله في الفوضى، منتقيا ومنسقا، ومجانسا كل شيء مع كل شيء.

قال سليم :

- إنه ليس رساما، بل كمبيوتر!

ابتسم السيد ×، فاستطرد سليم قائلا :

— إن رسومه تخلو من كل أسلوب. فهي خليط من الوجوه المعذبة والوجوه المزعجة، واللصوص، والتماسيح، ورجال الفضاء، والجنود، والحروب، ورامبو، وفان جوج، وبينوشي، وأورسن ويلز... ولكن لعل هذا هو الأسلوب كما يريده عمدا...

- إنه العالم المعاصر...

- نعم... ولكنه بعكس السورياليين الذين يريدون أن يصدموا بجمع وقائع متباعدة، يمارس نوعا من «الفتنة» الداخلية، فهو يدفع الواقع إلى أقصاه، ويضخمه إلى حدود الانفجار... بل إلى حدّ إرهاق موضوعه. أجد في لوحاته مزيجا من «البوب — آرت» والسوريالية والانطباعية والرسوم الصينية الواقعية — الاشتراكية... بحيث أشعر كأنها رسوم «لا - شخصية».... تنتفي منها الذات.. الحقيقة أنه يزعجني. إنني أفضل بول كلي، أو ماتيس... خاصة تلك اللوحات التي رسمها في المغرب، هل شاهدت مرة لوحة «فوق السطح»، أو «باب القصبة» أو «نظرة من خلال النافذة»؟

ولم ينتظر جواب السيد ×، بل واصل قائلا :

- ولكنك تحدس بالطبع أنني لم أجيء إلى هنا لأحدثك عن الرسم. لقد مرّت فترة لا بأس بها منذ لقائنا الأخير...

ـ عام تقريبا ...
سحب سليم نفسا طويلا من سيجاره، ثم قال :
ـ هل سمعت يوما بالشركة «العابرة للغرب»؟ إن مقرها غير بعيد عن هذا المكان.... من جهة شارع فرانكلين روزفلت ونهج ماتورين...
فكّر السيد × لحظة، ثم قال :
ـ لست متأكدا تماما... أليست نوعا من مكتب تشغيل للمرتزقة؟
ـ تماما. إنّها وكالة مرتزقة، يعملون تحت قيادة روني ديكيستر، الذي كان ضابطا في جيش الاحتياط الفرنسي. إن كلاب الحرب هؤلاء مخلصون تماما لسيدهم منذ حوالي العشر سنوات، فهم رفاق الدرب في «الضرّبات المعجومة»...
صمت قليلا، ثم أضاف :
ـ ولكن ما رأيك لو خرجنا لنشرب كأسا في مكان ما؟ فأنا لا أحب كثيرا أجواء المكاتب، فهي تجعل العلاقة رسمية....
ـ لست أرى مانعا من ذلك.
وقف السيد × مبديا استعداده للخروج، وتبعه سليم اللوز خارج المكتب.
في السيارة التي راحت تشق بهما شوارع باريس، والتي كان السيد × يقودها بنفسه، قال لرفيقه :
ـ أعرف مكانا هادئا من ناحية شارع «سان جيرمان». إنه ناد خاص على الطراز البريطاني، لا يقبلون فيه غير الأعضاء المنخرطين. إعتبر نفسك ضيفي هذا المساء.
قال سليم :
ـ أنا واثق من حسن اختيارك.
عندما دخلا النادي ذا الأضواء الهادئة، اختارا مكانا منزويا، وطلبا من النادل أن يحضر لهما شيئا من الطعام مع بعض الويسكي والماء المعدني.
ومرت لحظات من الصمت إلى أن حضرت المشروبات، فقال سليم :
ـ عمّ كنا نتحدث ؟
ـ عن ريني ديكيستر.
ـ آه !نعم، إنه مساعد سابق لجورج رينار. ولكنه اختفى فجأة، وأظن ان هناك اعلانا دوليا بإيقافه، لمشاركته في سنتي 1977 و1978 في انقلابين وقعا في بلدين إفريقيين، وحين لا يكون ديكيستر متورّطا في حرب مّا، فإنه «يبيع» لديكتاتوريي العالم الثالث حراسا رئاسيين وأسلحة، كما تباع

مصانع «المفاتيح في اليد».

قال السيد × :

ـــ لا شك أن جماعة «المسبح» يعلمــون ما هي نشــاطاتــه. إنني لا أفهم كيف يسمح بتكوين مثل هذه الشركات في البلدان الغربية.

ـ الغرب يـا صديقي يبيع كل شيء : المصانع والأسلحة والمرتـزقة. فهو يصنع الدول ويصنع الزعامات، ويشيّد ويدمّر في نفس الوقت، تبعا لما تمليه المصلحة. ما وجه الغرابة في ذلك؟ أمـا عن المخابرات الفرنسية، أو «المسبح» كما سمّيتها، فإن ديكيستر كان اشتغل لحسابها في وقت ما....

سكت لحظة، وأضاف :

ـ لا شك أنك تتساءل لماذا أحدّثك عن كل هذا.

اسمع، سوف أبوح لك بسرّ. لست بحاجة أن أقول إنه يموت هنا.

وتحجّرت عيناه وهو يتفرّس في السيد ×، الذي لم يهتزّ له رمش.

قال سليم :

ـ لقد كنت معهم في الانقلاب الأخير...

ـ ماذا تعني؟

ـ ذاك الذي وقع سنة 1978 في إفريقيا.

ـ حقا ؟

ـــ كما أقول لك. كنت في نــادي الطيران ذات يوم، حين اقترب مني أحـد الأصدقاء قائلا : «هل يهمك إشعـال شيء من البارود في افريقيا؟» قلت : لم لا؟ وبعد بعض الاتصـــالات، تواعدنا على اللقاء في مكـان معين بباريس. وفي الساعة المذكـورة، توقّفت سيارة، ودعاني سائقها للـركوب، ففعلت. اتجهنا نحو مطار صغير وهناك، كانت طائرة نقل بانتظارنا. وجلست داخل مدرّعة من نوع «أ . م ل» كانت داخل الطـائرة. وطلب مني أن ألتزم الصمت، وألا اتحرّك إلى أن يتمّ الإقلاع، وعندما وصلنا الجزيـرة المعنية، ادركت آنذاك ما هو المكان الذي كنت فيه، وما هي المهمّة المنتظرة .

أغرق السيد × في التفكير، وهو يتفرس في وجه سليم اللوز. لقد خيل إليه كأنه يعـرف هذا الشخص منـذ وقت طويل. بل وفي لحظـة ما، بـدا له كأن سليم هو صورته هو، منبثقة في الحقيقة والواقع. فكأنما لم يكن جالسا مع سليم، وإنما كان جـالسا وحده أمـام مرآة. وكأن ذلك الخيـال في المرآة هو الذي يتحدّث.

ومع ذلك، فهو يؤكد أن سليم اللــوز شخص آخر مختلف... مختلف عنه

تماما، وليس له به أية علاقـة، سوى تلك العلاقة السطحية التي تكونت على إثر لقاء جمعهما يـوما في بيت هنري وماري جوليـان. ثم راح يتسـاءل : ما علاقة سليم اللوز بأسره جوليان؟ هل هي صـداقة سطحية عابرة؟ هل ثمة ما هو أعمق من ذلك؟

ولم يجب عن هذه الأسئلة.

وقال له سليم :

ـ إنني بحاجة إلى خدماتك.

ـ أي نوع من الخدمات ؟

ـ لا تتعجب، أرجوك. لقد حـادثتك بصراحة. وسأكون صريحا أكثر. أنت رجل أعمال، لديك علاقات كثيرة، والصفقات بالنسبة إليك لا تختلف، إلا من حيث اختلاف الأرباح، هل أنا مخطىء؟

سكت السيد × بانتظار البقية.

قال سليم :

ـ وسواء تعلّق الأمـر بتوريـد النسيج أو تصديـر السلاح، فإن الفـرق الوحيد. كامن في الربح، أليس كذلك؟

ابتسم السيد ×، قائلا :

ـ ثمة فروق أخرى.... وهي لا تقلّ أهمية.

ـ اسمع، المسألة شـديدة الأهميـة. وبإيجاز، أريـد وساطتك مع شركـة «بوفيما» للحصول على بعض الأسلحة الحديثة.

أطرق السيد × برهة مفكّرا، ثم سأله :

ـ هل هناك انقلاب آخر في الأفق؟

ـ كلاّ، إنها مسألة مختلفة هذه المرة. فهي ثورة شعبية وطنية!

ابتسم السيد ×، وهو يقول :

ـ هل تسخر مني؟ «ثورة شعبية وطنية» بقيادة المرتزقة؟ هل تظنّ أنني نازل من القمر؟

ـ لا، المرتزقة لن يشاركوا. أؤكد لك ذلك.

ـ ومن يضمن لي؟ ثم ما شأني أنا والثورات والانقلابات؟

دعني أكنْ صريحا معك أيضـا، سأخيب ظنك، ولكني لا أشتغل بتجـارة السلاح. لا شك أنها مربحة، ولكنها ليست من اختصاصي.

ضحك سليم اللوز. من الواضح أنه لم يصدّقه، فقد قال له :

ـ لا ترفض على الفور، أرجـوك أن تفكّر قليلا، لا تنس أن المسألة تتعلّق

بملايين الدولارات.

- إلى هذا الحدّ ؟

- ولم لا ؟

من يصدّق أن رجل أعمال يرفض صفقة تصل أرباحها إلى مليون دولار؟ مؤكد أن أمثال هذا الرجل لا وجود لهم، سواء في عالم الواقع أو في عالم الخيال. فالذي يرفض صفقة كهذه، هو إما غبيّ أو رجل أعمال فاشل.

ومع ذلك، فقد رفضها السيد × ، على ما يبدو، قائلا لرفيقه :

- أين ستقع هذه.... الثورة ؟

- آسف. لا أستطيع أن أعطيك مزيدا من المعلومات.

- ولكنّ المسألة قد تتعلّق بحياة أو موت مئات وربما آلاف الناس.

- أرجوك ! لا تتحدث بهذه الطريقة. أنت تعلم جيدا أن التاريخ لا يتقدم فقط بالنوايا الطيبة. وأفترض أنك لست بالرجل الساذج.

قال السيد × :

- أشكرك على هذه المجاملة، ولكني فعلا، بمقياس مّا رجل ساذج، لأنني أعيش بالنوايا الطيبة كما تقول، وطموحي لا يرقى إلى مستوى التفكير في تغيير التاريخ.

قال سليم :

- لم يطلب منك أحد تغييره، بل مساعدة الذين يعملون على تغييره.

- أهكذا ؟ دون أن أعرفهم؟ إنه اقتراح غريب. ومن أدراني أنها ليست صفقة مع الشيطان؟

ضحك سليم مرة أخرى، وقال، بعد أن جرع جرعة من كأسه :

- أؤكد لك إنها ليست مع الشيطان... إنهم ثوريون.

- يا صديقي العزيز... إنّ الثوريين في هذا الزمان، يمين ويسار، وشمال وجنوب، ومن كلّ حدب وصوب. أي كان يمكن أن يدّعي الثورية أو الديمقراطية، وفي اليوم الموالي لاستلامه السلطة، وربما قبل ذلك، يتبين أنه ديكتاتور دموي، ليس كلّ من يدّعي الثورة ثوري، ولا كل من يدّعي الديمقراطية ديمقراطي، ولا كل من يدّعي العدالة عادل. إ[ن] هذا الميدان سوق حقيقية، لا تنتهي فيها المزايدات.

- هل ترفض إذن ؟

قال السيد × :

- بصراحة ؟ نعم. أنا لا أتعامل مع الأشباح، ولا أصدّق إلا ما تراه

عيناي، وأكـون مقتنعا به اقتنـاعا تامـا. ثم أن تجارة السلاح ليست مجال اختصاصي، كما قلت لك.... كل ميسرٌ لما قدّر له.

أطرق سليم، وقد بدت الخيبة على ملامحه. ثم رفع رأسه، وراح يتفرّس مرة أخـرى في السيد ×، بصمت، وكأنـه لم يصدّق كلمة واحـدة مما قـاله. وكان بإمكان السيد × أن يقرأ الأفكار التي تدور بذهنه. فقد كان يتساءل : أيعقل أن يرفض صفقة كهذه التي أعرضها عليه؟ هل يمكن تصديقه هل هو ساذج كما يـدّعي؟ هل هو غبيّ؟ مـا أضيق آفاقك أيها السيـد ×! ما أضيق آفاقك! ترى! هل يحاول أن يخدعني؟

وفكّر السيـد × أن ذهان صـاحبه أقـوى من ذهانـه الخاص. وهذا شيء رائع، إذ أن السيد × بدأ يكتشف أخيرا جنونه. وهـو ما لم يكن لينتبه إليه، على ما يبـدو، في السابق. ولكن مقابلتـه ـ الحقيقيـة أو الخيالية ـــ مع هذا الشخص الـذي يمكن أن يكون «بدله»، جعلتـه يصحو إلى نفسـه، ويشعر شيئا فشيئا أن تحوّلا كبيرا قد طرأ عليـه. ولكن، ترى! إلى أين سيقوده هذا التحوّل؟

هشام القروي

دراسة

«احتفاليّات» شمس النظير أو احتفاء الشّعر بالشّعر

محمّد الغزّي

هل يمكن للنقد الادبيّ أن يستعير من المتصوّفة طرائقهم في الكشف والمعرفة ؟ وهل يمكن أن تقوم لغة المتصوّفة في التباسها وازدواج معانيها بديلا عن المعاجم النقديّة في اتّساقها ووضوح مقاصدها ؟.

إن الاغراء قويّ فالقراءة لاتستتب مقوّماتها الاّ إذا انتهت لحظة كشف ومكاشفة، والقارىء لا يستطيع أن يستجيب للنصّ إلاّ إذا كان واجدا بالضرورة، والنص لا يمكن ان يغوي القارىء الا اذا تحوّل الى صوت يدعوه، ويعده بالاستسلام اليه، حتّى إذا استجاب لغوايته حصلت المناسبة، وتمّت المشاكلة، وقرّت العين بالعين.

والواقع أنّ النصّ، من حيث طبيعته، مصدر غواية لا تردُّ، لأنّ النصّ لا ينتج، كما يردّد النقّاد، دلالات وإنّما ينتج رموزا.

والرّمز يقاوم، مبدئيّا كلّ شرح وإيضاح، فهو على حدّ عبارة «هيقل» يظلّ دون حلّ تام، لهذا يبقى، مهما طوّحت بنا سبل البحث محتفظا ببقيّة من سرّ تندّ عن إدراكنا. فالرّمز، إذن دلالة مؤجّلة، فهو لا يقول المعْنى، وانّما يعدنا به، ولا يجلو السرّ وإنّما يكتفي بالتلويح إليه. لهذا نخطىء التقدير إذا اعتبرنا النصّ مجموعة من الكنايات المتضايفة يكفي ان نكشف عن رديف كلماته، وتاليها في الوجود ـ على حدّ تعبير عبد القاهر الجرجاني ـ حتّى نفضّ مغلقه، ونكشف عن مكنونه، استراتيجيّة النصّ تقوم على تحرير الدّال من المدلول، وفصم كلّ العرى التي تشدّهما بحيث تصبح العلامة حرّة عائمة تتحرّك في اتّجاهات شتّى وتشعّ بدلالات جمّة. بسبب كلّ هذا لا يستسلم النصّ إلى قارئه في يسر وانسياب وإنّما يكتفي بمناداته واستدراجه حتّى يتعقّبه بعيدا حيث يلتقيان.

كانت هذه الملاحظات الأولى ضروريّة حتّى نـؤكّد أنّ قراءتنا لا تدّعي هتك حجب النصّ أو استجـلاء أسراره. فغايتنـا لا تتمثّل في استبدال ألفـاظ مركبـة ثقيلة المستويـات بأخرى مفـردة، جليّة المقاصـد إذ لا وجود لنصّ خارج اللّغة التي تجلّ فيها، ثمّ إنّ النصّ ليس مـادّة مفردة، إنّه هذا التنوّع والتمـوّج والتكاثـر، وإذا أهبنا بلغـة المتصـوفة نقـول أن النصّ لا ينِي عن التناسل والتوالـد، فالكلمات فيه تحيا في حـال تعاشق وتوالج لهذا لا يتجلّى على هيئة واحدة مرّتين، كلّ قراءة تعطيه خلقا جديدا وتذهب بخلق قديم.

I - من هو ميروس إلى أورفيوس ؟

لاحظ «مـالارميـه» أنّ الشّعر قـد ضلّ طـريقـه منذ أن انحـرف بـه «هوميروس» انحـرافا كبيرا لهذا وجب العـود بـه إلى الينـابيع الأولى، أيّ إلى أغاني «أورفيوس» حين كان الشّعر «احتفـالا» بالأرض، غايته الأولى تتمثّل في تسمية الأشياء، وإخراجها من الملاء المعتم إلى حال الوجود والحضور في العالم... كذا كان الشّعر في البدء: لحظة افشاء وكشف عن طريقة تفاضلت الأشياء واتّضحت وتفتّح الموجود بكل إمكاناته.

«لحظة البدء» هذه كانت محور القصائد في «احتفاليّات» شمس النّظير وعبارة Célébration مشربة بمعان طقوسيّـة لا تخطئها العين، فهي توقظ في الـذّاكرة كلّ النّصـوص الـوثنيّة القـديمة التي تـرى الطبيعـة قوى محمّلـة بالمعنى، وما «الاحتفاء» إلاّ استثارة لها وإطلاق لطاقاتها المضمرة.

إنّ هذه القصائد التي نقـرأ في مجموعة «احتفاليّات» تبـدو، إذا أخذنا بتقسيم فيكو للتاريخ، كما لو كانت متحدّرة من عصر الآلهة، ويبدو الشاعر كما لو كان شـاهدا على انبثاق العالم من العماء الأكبر وشـاهدا على انفلاق البحار وانبسـاط السّهول، وانحـدار الأنهار، وارتفاع الجبـال... لقد خـرج العالم للتوّ من فوضاه الأولى، لا أحد يسكنـه غير الشاعر، فهو الّذي يحتفي بولادتـه، ويحضن عناصره، ويسمّي أشيـاءه، لكنّ التسميّة عند الشـاعر لا تعني، كما هو الحال عنـد الانسان «المتحضّـر»، تجريد الأشيـاء وإخراجها من حيّـز الملمـوس إلى حيّـز المعقـول، الشاعـر إذ يسمّي الأشياء لا ينسلخ عنها، لا يضع نفسه خارجها، الأسماء في هـذه القصائد ملتبسة بالمسمّيات، والرّموز بالموضوعات والشاعر متزوّج بالعالم في وحدة لا تنفصم عراها.

للخالق تمجيد النخيل وثناؤه
في البدء كانت الرّيح
نفسا أوّل، واندفاعا قديما

ناحتة السديم كانت ريح الأفلاك العليا
تنفّس الكواكب كانت ريح الأعماق والبراكين
نثار الرّيح كانت
وكانت آمرة القارّات في انحرافاتها...
في أقصى السّماوات، وفوق سطح الكون
قطفنا بذرة «السّاما»
تلك التي كانت مشيمة العالم،
والغرين الرّحمى
والوعد الّذي لا يحيط به وصفٌ

في هذه الأرض الّتي وصفها سفر التكوين قائلا: «كانت خربة خالية، وكان روح اللّه يـرفرف على وجه القمر» يـرتدي الشّاعر قنـاعه حتّى يرى الأشياء وينفذ إلى خفاياها المتسترّة. فالقناع عينٌ ثالثة أو لنقل إنّه عينُ العَين، فهو حجب لكشف، وإخفـاء لإظهار. هنـا تكمن أحد الفوارق الجوهـريّة بيَن الأقنعة التي تـداولتها «المجتمعات السّاخنة» وتلك التـي ارتدتها «المجتمعات البـاردة» فإذا كـانت الأقنعـة الأولى وسيلــة استمرار وتخفٍّ يلجأ إليهـا الإنسان قصد التغطية والتعمية فإنّ الأقنعة الثانية مثّلت أداة كشف واطّلاع أتـاحت لـلإنسـان الإدراك والمعرفــة. لهذا أشرب القنـاع في العـديـد من الحضارات طبيعـة سحريّـة وأصبح رديف المقدّس وقـرينه. هـذه الطّبيعة، طبيعة القناع السحريّة، هي التي رفدت الشّاعر بطاقات كبيرة وجعلته قادرا على تجاوز خصوصيّته الإنسـانية والامتزاج بشموليّة الـرّوح الكونيّة، لهذا أصبح القناع وجهه الحقيقي في حين تحوّل الوجه إلى قناع زائف :

حين أخلعُ قناعي
يتناثر لحمي قطعا

ألهذا السّبب ظلّ محمـد عـزيــزة متخفّيـا وراء قنــاع «شمس النّظير»؟

ألهذا السبب بقي متمسكا بأقنعـة الآلهة، والمتصوّفة والمعـاصرين الأوائل؟

إن القنـاع طـريق للعبـور من المعلـوم إلى المجهـول، ومن المدنّس إلى المقدّس، عـن طريقـه يصبح الإنسان قـادرا على النفاذ في مـا وراء الأشياء

المتّشح بالغموض.

فليس غريبا، بعد هذا، أن يصبح كلّ شيء، في هذه القصائد مشحونا بذاكرة وتاريخ وحياة: البحر والصّخر والورد والفجر والحرف... وأن تستعيد الأشياء، كلّ الأشياء شحنتها الأسطوريّة فتخاطب الشاعر وتنجز بين يديه لغات عديدة... الشّاعر تحوّل إلى صانع أساطير، لكنّها الأساطير التي يكشف فيها الفردُ عن النّوع، والنّوع عن الجنس، ويكشف الجنس عن الكوني وفوق هذا كلّه يكشف الفاني عن الأبديّ الباقي على حدّ عبارة كولردج».

II - في البدء كانت العناصر

في هذا السّياق تتبدّى بوصفها الاسطقسّ الأوّل، فهي «نفسُ» الكواكب، عن طريقها تتخذُ الأشياء هيئة مخصوصة، وتنبث الرّوح في كلّ كائن عقيم، إنّها «الرّياح اللّواقحُ» في النصّ القرآني، و«الألف» في القبالة اليهوديّة، وابنةُ النّار والماء في الغنوص الصّوفي:

على الأراضي كلّها، وفوق المياه جميعها
في الظّلمة والنّور
الرّيح في تحوّلاتها
ور بك يوقّعُها بأطراف أجنحته
ثناء النخيل وتمجيدهُ
لا شيء يبقى في عالم الرّيح هذا
غير وجهك أنت
أيها الإنسان الطّائر
يا سيّد الرّيح
حارس السّلالة

لكنّ حضور الرّيح، هذه القوّة التي تنفذ في صميم الأشياء فتعيد إبداعها، لا يعني غياب العناصر الأخرى، فالشّاعرُ في هذه القصائد، يحتفي بهذه الاسطقسّات التي كانت أصل الكون، ونبعه البعيد، فقصائده مساحة تلتقي فيها كلّ العناصر على تقابلها، وتتوادد وكأنّ الشاعر بهذا العمل يريد أن يقول: إن الإنسان أمام العالم حياة تقابل حياة:

... ضمّيني إلى حرارة الرّحم
لأنني خلقتُ منك
خذيني إليك كيْ يكتنفني السبات العميق

النّار
نار المعذّبين، نار الخلاص
نار القربان
متى أمرّ بمحنة النّار؟
نار الجحيم
نار الفرحة
نار الضجّة العارمة
والقوى العاكسة
حذار من الرّماد
ولتَـرْم بالسّهم المتوقّد صوب عين السّماء
باب الماوراء
الماء
الماء السحري العميق
ماء أخضرُ شفّاف
ونرجس في ردائه الحريريّ
ترى هل سينتهي الزّيف يوما
الأرضُ، الماء، النّار(1).

إن الشّاعر، إذا أخذنا بعبارات هيدقر، يعلن انتماءه إلى الأرض وهذا الانتماء قوامه أن يكون وريثا للأشياء جميعا ومتعلّقا بها في آن فهو الواحد المتعدد يرى نفسه، كما يقول المتصوّفة، عين كل صفة، ويرى كلّ صفة من صفاته من حيث رجوعها إلى ذاته عين الأخرى، فهو الكثرة المتوحّدة أو الوحدة الكثيرة:

خُذْني أيهّا المجذوب أغبْ في صنوجك الولهى
واحملني إلى بلاد «المندانق»
حيث يعقد سنودياتا مجلسه
خذني أقضِ فصل الشتاء
بين إخوتي التّماسيح
قرب العين ينبوع المياه الأمّ الصّاخبة.(2)

إن الشاعر يقرّ، مثل نيتشه، أنّ العالم في صميمه ظاهرة جماليّة، بل لعلّه يذهب إلى ما ذهب إليه هذا الفيلسوف من أنّ الشيء الوحيد الّذي يبرّر العالم والوجود هو أن يكون ظاهرة جماليّة، وبما أن العالم كذلك فالشّعر يصبح الانجيل الممكن على الأرض، به يرسي الشاعر كينونتنا نحن الدّاثرين أمام كلّ ما هو متحوّل متغيّر، ويذكّرنا في نفس الوقت بانتسابنا إلى

الوجود في مجموعه فلا غرابة أن تحتفي الكلمة بكلّ ذرّات الكون وهباءاته:

ساضمك إلى صدري وأحميك
فتعود إلينا دُنيا بدون أشكال
دنيا ترشح بالألوان
لأنّ القمر والشّمس سيتجامعان(3)

إنّنا لا نكتفي في حضرة هذه القصائد باستنزاف المعنى واستهلاك الرّمز وإنّما ندعى إلى الانفتاح على الشّعر، على مطلق الشّعر، التأمّل في وُجُوهه العديدة، ومراياه المختلفة، فنحن إزاء أثقال وأخيلة نسعى إلى تطويقها فيهرب منّا الكثير ولا نظفر إلاّ بالقليل.

الشّعر هنا ليس عنصرا مضافا الى الكلام وإنّما هو المخرج الذي لا ينال بغيره، لهذا نجد اللّغة لا تروي في الواقع تجربة غريبة عنها وإنّما تروي تجربتها، أيْ إنها ليستْ زجاجا يكشف عن المضمون وإنّما هي حضور يشدّ الإنتباه إليه...

III - اللّغة بيت الشاعر

هل قدرُ اللّغة أن تكون بيت الشاعر بعد أن فقد كلّ منازله الأولى؟

إنّ البيت كما أوضح مرسيا إلياد مفعمٌ بمعان ميثيولوجيّة فهو المكان الّذي يتقاطع فيه خطّان أولهما عموديّ يؤدّي صعودا إلى السّماء ـ وطن الآلهة ـ ونزولا إلى العالم السّفلي ـ مملكة الموتى ـ وثانيهما أفقي يفضي الى كلّ دروب العالم...

هذه الخصائص، خصائص البيت، اتصفتْ بها لغة الشاعر فهي انفتاحٌ على السّماء، وانغماس في الأرض، سياحة في الزّمان واضطرابٌ في المكان، اللّغة هنا استرجاع واستباق، تذكّر وتطلّعٌ:

واذكر يوم الخلق
حين أمر ربّك البذرة المختلجة
أن تفتّحي
وكان أن غمرتها أولى مواكبنا الطّائرة بالغرين والسّماد
حتّى تستوي واقفة في تدفّق المياه...

النصّ هنا شبكة من الكتابات، في باطنه تتماوج نصوصٌ عديدة في حال من الائتلاف والاختلاف، والتقارب والتباعد، والتقاطع والتواصل، إنّه

كتابة تشفّ عن كتابة، وأثر يكشف عن أثر... لهذا أحبّ أن أقول إنّ قصيدة شمس النظير تاريخٌ متحرّكٌ في كلّ اتجّاه، حالة احتشاد لأزمنة كثيرة وأصوات عديدة، فهي أعماق مغمورة وآثار مطمورة:

ولكنّك تمضي...
وفي آخر المعراج الّذي استمسكت به...
تبدو لك حجبُ التأهّل السبعة
فيهتكها شوقك،
عندئذ لا يتجلّى لك وجهك المرتقب
وإنّما تلوح لك مرآة
تشعّ بصور شتّى...

إنّنا لا نسمع هذه الأبيات إلاّ وتتداعى إلى أذهاننا صورة الطيور التي عبرت في كتاب «منطق الطير» أودية عديدة لتصل إلى السيمرغ ـــ معشوق الطيور ـ غير أن المعراج يفضي بها في الأخير إلى مرآة، تنظر فيها الطيور العاشقة فترى أنهّا أصبحت عين المعشوق، كذا يكون المبتدئ، كما يقول كوربان، يتلمّس الصّورة في البدء خارجة، رغم أنّه محكوم بها لأنهّا تغلّف وُجوده الباطن ثمّ إنّه ينتقل في تلمّسها بين أشكال العالم الحسّي حتّى إذا آب إلى حرم روحه أدرك أن المحبوبَ كامنٌ في أعماق المحبّ.

إنّ صورة المرآة تتواترُ في قصائد «شمس النظير» على نحو لافت وهذه الصّورة مشربة بمعان غنوصيّة واضحة:

تحطّمت المرآة
فأنّى لي أن أظفر بوجهي
في آلاف الشظايا المحطّمة

هذه السّطور تستدعي إلى الذّاكرة عبارة «ابن عربي» «العالم صور في مرآة واحدة، بل صورة واحدة في مرايا مختلفة»، بهذه الطّريقة يرفع الشاعر التقابل بين الوحدة والكثرة، فيردّ الكثير إلى مبدإ واحد، ويحلّ الواحد إلى صور عديدة...

هذه الإحالات على التّراث الإنساني نجدها مبثوثة، بطرائق شتّى في قصائد الشاعر، لذا وجب أن نقرأ هذه القصائد قراءتنا القطعة الموسيقيّة، على ما يقول ليفي ستروس، أيّ من الأعلى إلى الأسفل، ومن اليمين الى

اليسار، فالقصيدة هنا استعارة كبرى، مجازٌ موسّعٌ الكلمات فيها مشحونة بذاكرة تضرب بجذورها في أعماق المعرفة الانسانية لذا وجب تفكيكها حتّى نقترب من دلالاتها، ونفهم آلياتها الفاعلة. وعمليّة التفكيك هي العود بالنص صعدا في الزّمن، أي إنهّا قطع التّاريخ بالمقلوب، على حدّ عبارة جاك دريدا، غايتها حفر النصّ، واستكشاف طبقاته المترسبة بعضها فوق بعض والظفر بالنصوص الّتي تتخفّى في تلافيفها السرّية. وما لم يتمّ هذا العمل تظلّ كلّ قراءة لأعمال «شمس النظير» قراءة شوهاء مبتورة.

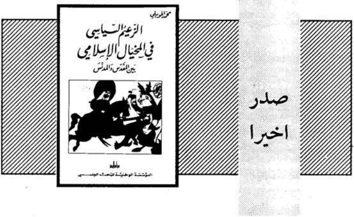
محمّد الغزي
كلية الآداب بالقيروان

المراجع :

ـ عاطف جودة نصر : الرّمز الصّوفي، دار الاندلس ـ لبنان ـ خخ.
ـ سعدي يوسف : مجلّة الفكر اليمقراطي ـ عدد 2 ـ ربيع 1988.

الهوامش

(1)، (2)، (3) : اعتمدنا ترجمة الأستاذ مراد بولعراس ـ البحار والأسطرلاب.



دراســــة

النقد العربي الجديد : سقوط مفهوم العضوية

فخري صالح

كيف يقاربُ النص النقـدي العربي الجديد النصوص والعـالم والأشياء؟ وكيف ينظر الناقد العربي الجديد إلى علاقة النقد بالنص الذي تواضعنا على تسميته بـ «النص الإبداعي»؟

منذ منتصف السبعينـات تقريباً بدأ المنظور النقـدي العربي يتغير، وحلّ الناقـد «النصيّ»، قارئ النصـوص، محل مؤرخ الأدب، كما حلّـت الرؤيـة المتشككة غير المستقـرة محل الرؤية القارّة المستنـدة إلى ايمان غير منقوص بالعـالم وأشيائه. فبين الأجيال النقـدية الأولى (بدءاً من طـه حسين وانتهاء باحســان عباس) والأجيـال النقديـة التاليـة بدأت زاويـة النظر إلى العـالم بالتحول، حيـث تبدلت المشاعر الثـابتة القارة الواثقـة تجاه العالم وأشيائه وحلّـت محلها مشـاعر مختلطة مترجرجة متشككـة واستبدل العمل النقدي على تاريخ النصوص بالعمل على النصوص نفسها.

إن التاريخ جزءٌ لا يتجزأ من النظرة الـواثقة إلى العالم، تلك النظرة التي تعتقد أن بـالإمكان القبض على الأشيـاء الهاربة والأشياء المراوغـة، وإعادة ترتيب بيت اللغة وبيت التاريخ. وبما أن هذه النظرة الثابتة قد سادت النقد العربي الســابق على منتصف السبعينات فإنّ التـاريخ، والنظرة التـاريخية للأشياء، قد غدا شكل العمل النقدي، بمعنى أنه أصبح البنية المحددة لطريقة العمل على النصـوص واستخـلاص النتـائج منهـا. لم يكن النص، في هـذا السياق. النقـدي، غايـة من غايات التحليل بل كـان مجرد وسيلة ودعـامة للتحليل التـاريخي، وسيلة لكتابـة تاريـخ الأدب أو تاريخ النظـر إلى الذات الملتمّـة على نفسها، الذات غير المشروخة.

إن إهمال التحليل النصيّ لم يكن في مجمله قصورًا ذاتيًا في طبيعة الأداة النقدية بل كان مكونا أساسيًا من مكونات النظرة النقدية إلى العالم. ولو أن هذا التحليل النصيّ حصل لاكتشفت الأجيال النقدية السابقة العديد من الشروخ التي كانت النظرة النقدية المطمئنة إلى ثبات الأشياء واستقرارها تلغي وجودها أو تعمى عنها.

ما أريد أن أؤكد عليه هنا هو أن الأجيال النقدية السابقة كانت تمتلك تصورًا خطيًا للتغيير، وقد تطابقت هذه النظرة إلى تغيير العالم مع تصور هذه الأجيال للنصوص وتاريخها. إن الوثوقية التامة التي كان ينطوي عليها النقد العربي السابق تكشف عن نظرة أيديولوجية تلأم الشروخ والانقطاعات في أجساد النصوص وتجعل الناقد مجرد سارد للأحداث النصيّة وباحث(1) عمّا يمكن أن يُشكّل تاريخًا عضويًا لها. فكما كانت العضوية هي المعلم البارز في النصوص الإبداعية فإن فكرة العضوية نفسها كانت قائمة في النقد الذي ينظّر لهذه النصوص الإبداعية.

إن النقد هو جزء من البنية الأيديولوجية العامة، حسب تعبير الناقد الإنجليزي تيري ايجلتون(2)، وبالتالي فإن التصور السائد للأشياء والتاريخ يندرج بصورة غير منظورة في طبيعة النظرة النقدية إلى النصوص المنتجة في فترة تاريخية بعينها. وهكذا فإن نقد طه حسين مثلاً، رغم شكّه المنهجي الديكارتي، كان يستند إلى رؤية وثوقية إلى العالم، ولم يكن شكّه الديكارتي سوى أداة لفحص هذا العالم الموثوق منه ومن امكانية تفسيره وتغييره(3). ولقد ظل النقد نفسه أداة تفحص، أداة من أدوات الفحص التاريخي وشكلاً من أشكال التاريخ الأدبي. ولو راجعنا أيّ نص نقدي سابق ينتمي إلى الفترة نفسها لوجدنا أن التحليل النصيّ نفسه يتحوّل في حال وجوده إلى جملة من الانطباعات والأحكام المعيارية التي تشكل دعامات المنهج التاريخي في النقد. لا أريد أن أتوصل إلى القول إن طبيعة هذه النظرة كامنة في النصوص الابداعية نفسها، لأن العكس هو الصحيح. لكن ما يفضحه النص، وما يكشف عنه بطرق غير مباشرة باستخدام وسائل ابلاغية نصيّة تتعلق بالتقنيات ووسائل إقصاء الخطابات غير المرغوب فيها وطمسها والسكوت عنها، يعمل النقد التاريخي على ستره وعدم افشائه.

هكذا يتحول النقد، دون أن يدري، إلى مؤسسة من مؤسسات الأيديولوجية السائدة، إلى وسيلة ثابتة، إلى أداة إقصاء وعزل تمنح الجسد النصي ملمحًا عضويًا لا شروخات فيه، تمنحه التجانس والتلاؤم مع المحيط. لنقرأ نقد محمد مندور ومحمد النويهي واحسان عباس وسنجد أن محاولة كتابة تاريخ الأنواع الأدبية العربية الجديدة كانت محكومة بهاجس

الوحدة وكأن الكتابات المندرجة في هذه الأنواع هي كل متجانس لا تباين فيه ولا اختلاف. ومن هنا كانت البؤرة المركزية لعمل هؤلاء النقاد هي البحث عن محور ينتظم الانتاج في هذا الإبداع، وعن نقطة مركزية تشع منها النصوص في تلك الفترة. لم يكن هاجس الإختلاف شاغلا من شواغل النقد، ولهذا كان يجري اعدام كل النصوص المغايرة لروح السائد أو اقصاؤها أو تجاهلها أو المرور عليها بصورة عابرة.

إن التاريخ النقدي، رغم بحثه عن مفاصل أساسية وعن علامات فارقة ونقاط تحول يهمل، في سياق انتاج رؤية ايديولوجية غير مشروخة، الفروقات ويحاول أن ينتج ما يعزز الرؤية الموحدة للعالم. ولقد كان ذلك، دون شك، نتاجا لطريقة نظر العربي إلى نفسه في تلك الفترة التي تبعت عصر النهضة والإحياء واحتضنت في الوقت نفسه عملية الخروج من مرحلة الإستعمار التقليدي محققةً بذلك استقلالاً، كان في الحقيقة وهميًا، كما احتضنت صعود الفكرة القومية رغم ترسخ الكيانات والغائها البطيء لملامح الدولة القومية.

لكن النقد العربي الجديد قد استيقظ على الوهم الذي عاشته مرحلة النهضة وعصر الإحياء. لقد اكتشف الناقد الجديد أن الإستقلال الذي حصلت عليه الشعوب العربية كان منقوصا وأن الإستعمار يعود الآن بطرق ووسائل جديدة إلى المنطقة العربية، كما اكتشف أيضًا أن وهم العضوية والوحدة قد تبخر تمامًا، وصار غير ممكن التعامل مع هذا الجسد المجزأ وكأنه جسد واحد. وقد انعكس هذا الإحساس اللايقيني وهذه الرؤية المشروخة على النقد بصورة غير مباشرة.

لقد أهمل التاريخ وبدأ العمل على النص، تلك الحقيقة الوحيدة المُتَيَقَّن منها والمُتَثَبَّت من إمكانية لمسها وتحليلها واكتشاف شروخاتها الداخلية.

هكذا انتقل النقد العربي إلى مرحلة جديدة عبر جيل جديد بدأ ينبش ركام الماضي ليبحث عن المختلف(4) فيه، عن الشارد والمُهْمَل والمُقْصى من تاريخ الأدب العربي، كما بدأ يطالع النص بوصفه هو التاريخ الفعلي ولقد انعكس هذا اللايقين على طرائق مقاربة النصوص وعمليات التحليل النصية البنيوية وغير البنيوية رغم اختلاف الوسائل الإجرائية وربما النتائج التحليلية. ومع ذلك، فإنني لست مع من يعتقدون أن هناك فروقات كبيرة بين عمل النقاد الماركسيين الجدد وعمل النقاد البنيويين من النسل النقدي العربي الجديد. وما يجمع كمال أبو ديب بيمنى العيد هو أكثر مما يفرقهما، كما أن ناقدا مثل جابر عصفور، تبدو المنهجية البنيوية التكوينية بالنسبة له أكثر من مجرد طريقة اجرائية للتحليل(5)، يلتقي إلى حد كبير مع

كمال أبو ديب. وإذا كنّا نبحث عن الأسباب الفعلية التي ينشأ عنها هذا الالتقاء فإننا سنجد هذه الأسباب كامنة في النظرة المتشككة إلى العالم والعامل معه بوصفه عماءً، سديماً غير متشكل. إن عمل كمال أبوديب خصوصا الأخير منه، ينطوي على هذه السمة وينبع منها ويفيض(6). ولعل هذا الاحساس بعدم الثبات هو الذي جعله يلتفت إلى قراءة الواقع السياسي ومحاولة ايجاد تفسير للظواهر السياسية والإجتماعية، والعمل كذلك في مجال ثقافي آخر هو تاريخ أنظمة الفكر عبر تقديم محاولات في تفسير آلية عمل السلطة وطرق تأثيرها على الفرد.

هكذا تصبح الحياة نصًا عبر معالجتها معالجة نصية وتصير الظواهر جميعها خاضعة للفحص والمقاربة. إنّ النصيّة تتخلل كل شيء ويصبح التساؤل عن المسلّمات مشروعًا في سياق التفكير النقدي العربي الجديد. وليس كمال أبوديب وحيدًا في هذا الميدان بل إن معظم النقاد العرب الجدد يحاولون من خلال تحليلاتهم النصيّة إلقاء نظرة على الظواهر الاجتماعية والسياسية، ونجدهم منشغلين بايجاد تفسيرات لهذا العالم المتخلخل. إن النصوص الأدبية لا تصبح، في الحقيقة، مرآة للنظر إلى تَعقّد العالم من حولنا ولكن العماء الذي يلفّها يؤشر باتجاه العالم ويتهمه. لنقرأ عمل الياس خوري النقدي في «تجربة البحث عن أفق» و «دراسات في نقد الشعر» و «الذاكرة المفقودة»(7)، وسنجد أن الانشغال بتقديم تفسير للعالم من خلال النصوص هو الهاجس الملازم لهذا العمل الذي يصعب إدراجه في منهجية نقدية محددة.(8)

كذلك هو عمل يمنى العيد التي تنطلق من الأطروحات الماركسية التقليدية والأطروحات الالتوسيرية والبنيوية التكوينية، إضافة إلى الشعريات البنيوية، وذلك كي تقدم تفسيرا لا للنص بل لوسط إنتاجه(9). إن يمنى العيد والياس خوري ومحمد برادة ومحمد بنيس يدعون لإعادة ربط النصوص بوسط انتاجها. وبهذا المعنى يصير النص وسيلة كما كان في المنهج التاريخي، ولكن الوسط الذي تستخدمُ الوسيلة للكشف عنه لم يعد واضحًا، لا صدوعَ فيه ولا تشققات، بل أصبح شبيهًا بالنص الذي يضيئه مليئًا بالشروخ.

إن هذه السمة الأساسية المتخللة لعمل النقاد الجدد، والمتمثلة في شعورهم باستحالة القبض على جوهر ثابت للأشياء وحالة السيولة والجريان الدائم للزمن(10)، تضع خطًا فاصلاً بين هذا النسل النقدي الجديد ودعاة المنهج التاريخي بأشكاله ومنهجياته وتقنياته التحليلية المختلفة. واقع ينهار ويفقد ركائزه ودعاماته التي كانت تسنده سابقا.

صحيح أن الجيل السابق كان أسير وهم الوضوح والثبات، ولكن هذا الوهم وفّـر مظلة لنقـده عـالما يمكن تفسيره وتغييره، أمـا اليقين الثابت الجديـد بـالعماء والانهيار فلم يستطع أن يـوفر مظلـة للنقد العـربي الجديد. فلقـد أصبح كـابوس الاكتشـاف والـوعي لا أداة فحص نقـدية بل انخراطًـا في تجربة اليأس والرماد، الرماد الذي تخرج منه العنّقاء ولا تجدد نفسها بعد احتراقها.

وهكذا في تجربة تعيـد إنتاج نفسها يصبح النقد العـربي الجديد إعادة إنتـاج لحيرة النصوص الابـداعية وفشلهـا في تقديم تفسير منطقي للعـالم وأشيـائه، يصبح هـذا النقد تجربـة تعيـد تأمل مـا تأملتـه النصـوص الابداعيـة وحاولت استغواره. إن الحدود الفاصلـة، فيما يتعلق بهذه النقطة بالـذات، بين الابداع والنقد، تذوب، تتـلاشى، تمّحي، لتصبح الخطوط التي تقسم الأنواع شبه ممحـوًّة، شيئـًا من الصعب التيقن منه والقبض عليه.

سأبـرهن الآن على أطروحتـي فيما يتعلق بوجـود عنصر مشترك يجمع الممارسات النقـدية العربية الجديـدة. العنصر المشترك الأول هو تركيـز هذا النقد على النصوص، على التحليل الضافي للنصـوص حيثما كان ذلك ممكنًا. ولا أظن أن هذا العنصر المشترك بحـاجة إلى برهنـة لأن جميع النقاد الجدد يتغنـون بالنص بحيـث صا رالنص صنمًـا Fetish . لكـن العنصر المشترك الأكثر أهمية هي كيفية النظر إلى العالم من خلال النص. إن العالم هو النص الغائب بالنسبة للناقد، وهـو يتوسّـل النص كأداة توسـط بينه وبين العالم بحيث يكشف عن العالم من خلال تحليله للنص.

يرى كمال أبوديب أن المنهج البنيـوي يجعل من فهم القصيدة مثلا لفهم العـالم، ويصبح وعي العـلاقـات التي تنشأ بين مكـونات الثقـافـة وعيًـا للعلاقات التي تنشأ بين مكونات البنيـة الإقتصادية والنفسية والإجتماعية. وفي هذه العمليـة تتعقد الدراسـة والاكتناه وتصبح عمليـة الإدراك مُـعادلاً لعمليـة الإبداع والخلق. ويصير التلقي نشـاطـا يفرض على المتلقي مطـالب عنيدة جديدة، والقراءة عملاً عسيرًا»(11).

إن هـذه المحاولـة لفهم العـالم من خـلال فهم النص هي التي تتحكم في نظرة النـاقد العربي الجديد وطبيعـة رؤيته لوظيفتـه. ويمكن لنا التيقن من ذلك بالتدقيق في التحليلات النصّـية التي يقـدمها النقاد العرب الجدد سواء أكانوا بنيويين أم بنيويين تكوينيين أم مـاركسيين جددا أم مابعد ـ بنيويين. لنأخـذ مثـالاً لـذلك تحليل يمنى العيـد لقصـة اليـاس خـوري(12) «رائحة الصابـون» التي تعمل يمنى العيد على كشف مفهوم الراوي فيهـا والموقع الذي ينهض منه الـراوي. إنها مشغولة بالكشف عن المنظور الايـديولوجي

للكاتب عبر تحليل تقنيات القص التي يستعملها. وبالتالي فإن وصفها للراوي هو وصف يقصد منه تفسير العالم القصصي وبالتالي المرجع الواقعي الذي يشير إليه هذا العالم وينتج ضمنه. الراوي هنا مجرد شاهد، بل شاهد ممزق أحيانا، مأساوي حتى السقوط في العدمية، وحتى الغياب في بلبلة الرؤية لما يجري، ولما يحدث بين الشخصيات وفي العالم الذي فيه يعيشون». ص: 86، إن العيد تحاول بالطبع إضاءة المرجع الواقعي من خلال قراءة النص، لكننا نقع أحيانا على تأويلات، تتكىء على النص، ولكنها تبدو وكأنها ملتصقة بصوت الناقد.

«وهمٌ أن يظن الإنسان نفسه، في هذه الحرب المدمرة في لبنان، أنه، فقط في موقع الضحية فيها». ص: 9.

إنها تقوم في الحقيقة بدور السامع الضمنيّ الذي يضمره النص حيث يختلط ضمير الناقد/ القارىء بضمير الراوي الشاهد. وهكذا يعمل التحليل النصّي على إيجاد مرتكزات من داخل النص لإقامة حكم على المرجع الواقعي. ليس ضروريًا بالطبع أن تتطابق رؤية الناقد مع رؤية الكاتب أو رؤية بعض شخصياته، لكن المقصود هو أن النصوص تساعدنا على فهم العالم أو الإعلان عن عدم قدرتنا على فهمه.

إذا كانت يمنى العيد تعمل على الكشف عن المنظور الأيديولوجي للكاتب وشخصياته فإن محمد برّادة يقدم في قراءاته للرواية العربية الجديدة منظورا تمتزج فيه العناصر المنهجية للبنيوية التكوينية بعناصر مفهوم «باختيّن» للرواية ووظيفتها في العالم. إن غاية برّادة معلنةٌ دومًا من خلال ما يطرحه في مقدمة التحليل ومن خلال إشاراته وهوامشه، ولذلك لا يحتاج القارىء إلى معرفة قصد الناقد ونيته الكامنة. وهو يعلن مثلاً في دراسة له عن «ثلاثة نماذج روائية»، هي «ثرثرة فوق النيل» و «الزمن الموحش» و «نجمة اغسطس»، أن «الرؤية للعالم هو المصطلح الإجرائي الذي سأعتمده لمحاولة تحديد العلائق بين ثلاث روايات كتبت في فترة متميزة وبين الرؤيات للعالم المتواجدة في المجتمعات العربية خلال الحقبة نفسها. لكن استعمال هذا المصطلح لا يعني عزله عن المنهج النقدي الذي بلوره، وهو البنيوية التكوينية، وإنما هو اجتزاء لجأت إليه لأنني لا أتوفر على الوقت الكافي لانجاز التحليل في مجموع عناصره. يضاف إلى ذلك، أني مقتنع، من الناحية المنهجية، بفعالية المزاوجة بين الإطار العام للبنيوية التكوينية وبين المصطلحات الإجرائية المستخلصة من دراسات شاعرية الخطاب الروائي»(13)

واضح من الاقتباس أن منهجية برّادة تنتمي، إلى حد بعيد، إلى منهج غولدمان، وحتى التحوّط الذي أبداه بخصوص الإجتزاء هو تحوّط غولدماني كثيرا ما نعثر عليه في عمل الناقد الفرنسي ولا ينفي هذا التأكيد على المنهجية البنيوية التكوينية لدى برّداة تلك الإشارة إلى ضرورة الإستفادة من عمل ميخائيل باختين. إن جوهر عمل برّادة في معظم ما كتبه حول الرواية العربية بنيوي تكويني من الناحية المنهجية وإن تمازج ذلك الإطار المنهجي بكشوفات باختين وملاحظاته حول تاريخ الرواية.

لكن ما يهمنا في هذا السياق هو أن نؤكد أن تحليل برّادة، لروايات محفوظ وحيدر حيدر وصنع الله ابراهيم، استنادا إلى مفهوم الرؤية للعالم، لا يُسْقّط على النص من خارجه. إنه يقوم بتحليل نصيّ غير تفصيلي مقيما في النهاية توازيات مع العالم الخارجي القائم بموازاة النص في اللحظة التاريخية التي انتج فيها النص. وبالتالي فإن الناقد لا يقدم تفسيرات نهائية لطبيعة رؤية العالم لدى كل روائي محاولة الوصول إلى إقامة علاقة بين الوعي القائم والوعي الممكن، ومحاولة التوصل إلى القول بأن الرواية قد تكون وسيلة لحمل هذا الوعي الممكن.

«إن المسألة (....) تتمثل في تنويع وتطوير الأشكال للنفاذ إلى أعماق واقع المجتمعات العربية من زاوية أساسية هي: الكشف عن الوعي الممكن المغيّب وراء الوعي القائم»(14).

إن السبب وراء تحفظات الناقد التأويلية هو عدم التيقن من تفسيره لهذا الوعي الممكن وقدرته على الإجابة على سؤال المستقبل وعدم وجود يقين ثابت لدى النص الإبداعي نفسه. وهو يشير في موضع آخر إلى الصورة الهشة للمستقبل العربي، وبالتالي عدم إمكانية تقديم تصور مستقبلي للرواية العربية.(15)

لنأخذ بالمقابل عمل خالدة سعيد ومحاولاتها الدائبة لتقديم رؤية جديدة للثقافة العربية عبر تحليل النصوص باستقصاء دواخلها. إنها معنية بالبحث عن علامة الحياة في زمن الموت(16)، وبالتالي فإن طبيعة النصوص التي تقرأها ذات سمات معينة يغلب عليها الإحساس بالتشذ أو التشظي أو النبرة النبوية الطالعة من رماد تجربة اللايقين والانهيار. وإذا نظرنا إلى النصوص الروائية التي تقرأها نموذجًا فإننا سنجد أنها تؤكد كما تقول هي على طابع البحث والانفتاح.(17) إنها تلك النصوص التي تحمّل برؤية مشظّاة للعالم، وهي بالتالي تسعف الناقد في تأكيد طبيعة رؤيته للعالم.

في هذا النقد الاستشرافي ما هي علاقة المنهج بالرؤية؟ هل رؤية طالعة

من المنهج أم أن المنهج هو مجرد وسيلة للكشف؟

في نقد خـالدة سعيـد لا نعثر كثيرا على المصطلحات الإجـرائية للبنيـوية ولكننا نصطدم دوما بالدأب والتقصّـي التحليلي والإصرار أحيانًـا كثيرة على استخـدام الرسـوم البيانيّـة للتيقّـن من نتـائج التحليل. إن المنهجية شبـه البنيوية هي أداة فحص مساعدة للرؤية العامة التي يكشف عنها الناقد عبر تحليل النصوص. وبالتالي فإن عمل النـاقد العربي الجديد يحاول أن ينفلت من المنهجيـة الصـارمة ليمـزج بين النقـد الـرؤيوي والمنهجيـات الجديـدة وكشوفات النظرية الأدبية الحديثة.

هوامش:

(1) انظر حول أطروحة العضوية في الشعر العربي، ثم تفتت هذه العضوية في الشعر العربي المكتوب في السبعينات، مقالـة كمال أبوديب «الواحد/ المتعـدد: البنية المعرفية والعـلاقة بين النص والعالم».، حيث يؤكد على اتجاه الشعر من الواحد إلى المتعدد ومن الوثوق إلى الإحتمال.

كمال أبوديب. مجلة الكرمل. العدد 23/ 1989. ص ص: 23 ـ 56.

(2) للتعرف على علاقة النقد بالأيديولوجية لـدى ايجلتون، ينبغي قراءة كتابه «النقد والأيديولوجية»، الذي تـرجمته إلى العـربية، وسيظهر قـريبا. وهـو يطبق فهمه لعـلاقة النص بما يسميه «الأيـديولـوجية العامة». ويمكـن قراءة الفصل الأول منه المنشور في مجلة الكـرمل» . العدد 23/ 1989. ص ص: 57 ـ 87.

(3) يفسر جابـر عصفور التبـاين والتنـافر في نقـد طه حسين مستنـدًا إلى الطبيعة التنـويريـة لعمله النقدي، وإلى البعـد الموسوعي في هذا العمل. ويشير معلقا على الانتقـائية والتوفيقية في نقـد طه حسين إلى نزعة تلفيقية:

«وبقدر ما يشحب الـوعي النقد الصارم للإختيـار مع هذه الموسوعية، تـرتفع درجة الإنتقاء المرسل، والتوفيقيـة التي تصالح بين الأضـداد، لتفيد من كل شيء، وتجمع محاسن كل شيء، دون أن يكـون لديها الوقت الكـافي ـ بسبب تعدد الأدوار، وعـدم إلحاح الحاجة إلى المراجعة ــ للبحث عن التجانس، أو الإلحاح على منظور واحد متلاحم، أو إدراك المسافة المراوغة التي تفصل بين التوفيق والتلفيق».

جابـر عصفو . المرايا المتجاورة: دراسـة في نقد طه حسين. الهيئة المصريـة العامة للكتاب. الشـاهرة. 1983. ص: 10.

ويلتقي هذا التفسير لنقد طه حسين مع تفسيرنا للطبيعة التصورية العضوية للنقد في حقبة طه حسين النقدية وللرؤية التي ترى العالم كلاً منسجما رغم التشققات والصدوع البارزة فيه.

(4) يشير كمال أبوديب إلى هذه المسالة قائلا: «أنا اعتقد أن الشيء المختلف جذريا في النقد الجديد، هو طبيعة الأسئـلة التي يطرحها على النص. وهذا شيء هـام جدا. نحن (....)، على عكس النقد التقليـدي الذي يؤكد على عناصر التشابه، نؤكد على التناقض، وهذا يرتبط بالحضـارة المعاصرة بأسرها».

ندوة بعنوان «النقد العربي، وآفاق النقد الجديد»، شـارك فيها حير الصايغ وخالدة سعيد وكمال أبو ديب والياس خوري. مجلة مواقف. العدد 41/46 ـ ربيع ـ صيف 1981. ص: 25.

(5) يقول جابر عصفور في تقديمه لكتابه عن طه حسين:

«يحاول هذا البحث التعرف على طبيعة الفكر النقدي عند طه حسين (1889 ـ 1973) وذلك من خلال اكتشـاف الصيغـة التكـوينيـة التي، ينبني بها هـذا الفكـر. وبقـدر مـا يسعى هـذا البحث إلى اكتشـاف الخصـائص النوعيـة لهذا الفكر فإنه يحرص على أن يتعامل معـه بوصفه وحدة متكـاملة، لا ينفصل فيها

نظر عن تطبيق، ولا يتم التركيز فيها على جانب دون آخر، بل يتوجه البحث صوب كل اتجاه، ويتقصى كل مجال، ويتدبر كل تغير، ويتغلغل في كل تنوع، للوصول إلى أساس تحتي، يرد التنوع إلى الوحدة، والتغير إلى ثبات».

جابر عصفور. المصدر السابق. ص: 7.

(6) أنظر على سبيل المثال:

«الحداثة، السلطة، النص».. مجلة فصول. العدد الثالث. المجلد الرابع. 1984. وكذلك: «النص والحقيقة». مجلة الناقد. العدد 22 1990.

و «الكتابة والسلطة». مجلة الناقد. العدد 26 1990.

إضافة إلى سلسلة من المقالات نشرها في مجلة الأفق الأسبوعية (الصادرة في قبرص) في نهاية عام 1985 ـ وبداية عام 1986

(7) أنظر: ـ «تجربة البحث عن أفق» . مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية. بيروت ـ 1974.

ـ «دراسات في نقد الشعر». دار ابن رشد. بيروت. 1979.

ـ «الذاكرة المفقودة». مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. 1986.

(8) يقول الياس خوري، في إضاءة لعمله النقدي،: «النقد هو فن يجمع كل العلوم ويتكىء عليها، وفيه يظهر تطور العلوم الانسانية، في المجتمع. فالنقد لا يستطيع ان يكون مفصولا عن علم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة... وفي مجتمع كالمجتمع العربي حيث لا تزال هذه العلوم في طور الترجمة، وحيث لا ننتج المعرفة بل نستهلكها، فإن السؤال الذي يطرح هو كيف نستطيع أن نؤسس لنقد جديد في ظل غياب هذه العلوم».

ندوة مواقف. ص: 15

لكن الياس خوري يستدرك قائلا «هذا الجديد النقدي ينطلق أساسا من ذوق وحساسية فنية. والذي ينظم هذه الحساسية، ويحولها الى عمل نقدي له معنى، هو تركيزها على محاولة قراءة النص من الداخل». المصدر السابق. ص: 15.

إن خوري كما هو واضح يخرج بين القراءة البنيوية، التي تتحلل من كثير من المفاهيم والمصطلحات الإجرائية، والرؤية الذوقية الانطباعية، لكنه في النهاية يظل وفيا لقراءة النص من الداخل.

فإن هذا لا يعني أن النص يصير وسيلة للتأكيد على فكرة اللاعضوية وغياب اليقين بل إن النزعة المنهجية لدى الناقد العربي الجديد تعمل عى دفع النص إلى الكشف عن هذه الفكرة المتغلغلة في أعماقه بالإستعانة بالوسائل المنهجية وكشوفات النظرية الأدبية الحديثة. إنه محمود أمين العالم (18)، وهو ناقد ماركسي، لا يأنف من استخدام التحليل البنيوي ووسائله الإجرائية ليكشف عن مكونات عالم صنع الله ابراهيم، وهو يعمل بدقة بالغة على تحليل المقاطع الاستهلالية والأزمنة الداخلية وطبيعة الأمكنة والعلاقات بين الأزمنة وأنواع اللغات السردية ليكشف عن الشروط السياسية ـ الاجتماعية للإنهيار.

إن النقد العربي الجديد، بمنهجياته المتعددة، يفتح مجالا خصبا لا لفهم النص الإدبي وحده بل لفهم الحياة العربية برمتها، بمشكلاتها ومناطقها الغامضة التي تدفع المبدع والناقد إلى تملّ الكيانات نفسها وإلى التوصل إلى تحليلات متشابهة للواقع الراهن.

(9) انظر كتابها «الراوي: الموقع والشكل». مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. 1986. ص ص: 113 ـ 51 حيث تشدد على العلاقة بين الكتابة والموقع، وقراءة النصوص بوصفها فعل إنتاج.

(10) يقول كمال أبوديب بخصوص حيرته أمام النص «أنا، ببساطة، لا أعرف العالم. ليست لي نعمة هذه المصادرة المرعبة للوجود. إن رأدي ليضربه الدوار كلما وقفت أمام نص أسائله أن يفصح عن علاقته بالعالم». «النص والحقيقة». الناقد. العدد 22 ص: 48.

(11) كمال أبوديب. جدلية الخفاء والتجلّ. دار العلم للملايين. بيروت. 1979. ص: 15.

(12) يمنى العيد. المصدر السابق. ص ص : 81 ـ 106.

(13) محمد برّادة. الرؤية للعالم في ثلاثة نماذج روائية. في كتاب جماعي بعنوان «الرواية العربية:

واقع وآفاق». دار ابن رشد. بيروت. 1981. ص: 129.

(14) برّادة. المصدر السابق. ص: 147.

(15) يقول برادة في بحث لـه بعنوان «الرواية العربية المعـاصرة: استشراف لآفاق التطور المستقبلي»: «من خلال السمات البارزة التي تطبع حاضر الأقطار العربية يبدو مستقبلها هشا وفاقدا لبوصلة التوجيه ومركـز التجميع بالفعل، فإن واقـع التجزئة وسيادة الـلاديمقراطيـة أو قيام ديمقـراطيـة شكليـة وتفاقم التبعية وتراجع الحركات التحررية والتقدمية واحتلال القوات الصهيونية أجزاء من الوطن العربي، يحمل على الاعتقاد بأن صورة المستقبل لن تكون مضيئة ولا باعثة على التفاؤل. وحتى التاريخ العربي المتفاوت من قطر إلى آخر يبدو الآن ضمن واقع التدهور والتجزئة وغياب المشروع القومي تاريخيا (متساويا) مهما تباينت الشروط والتفاصيل». من كتاب جماعي بعنوان «الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع». مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 1987، ص: 203.

(16) تقول خالدة سعيد:

«يرسم التعبير العـربي بمجموعه، وعلى اختـلاف مراحله وأنـواعه، ملامح التحـرك التراجيدي الآسر لثقافـة بلاد تبحث عـن وجهها الحاضر، في مأزق الاغتراب المركب، بين مـاض مضى، وحاضر مـرفوض، وآخـر مهاجم ومستقبل لم يكشـف عن وجهه بعـد؛ وفي هـذا المأزق تتقرّى طـريقهـا، تبتدع المنـارات أو تسقطها، تطرح الأسئلة، تستقبل الأجوبة أو تجترحها، تنقضها، تنكفىء، تتوحد بالماضي، تبحث عن مطلق، أو تنفتح تسقط المطلق، تتفرس في الواقع، تتأصل في الواقع، في المكان، تبعث في رموز الماضي دماء الحاضر، تبدع الأحلام والـرموز، تسقطها لتبحث من جديد.. هـذه الحركة المأساوية الباحثـة هي، كما أرى، علامة الحياة في زمن الموت».

حركية الإبداع. دار العودة. بيروت. 1979. ص: 9:

(17) يمكن أن نستنتج هـذا التصور من تحليلهـا لـ «ثرثرة فـوق النيل» و «ما تبقى لكم» لغسّـان كنفاني و «عودة الطائر إلى البحر» لحليم بركات.

أنظر المصدر السابق، ص ص: 228 ـ 257.

(18) أنظر كتـابة «ثلاثيـة الرفض والهزيمـة». دار المستقبل العربي. القـاهرة. 1985. وأنظـر أيضا مناقشة لكتاب العالم.

فخري صـالح. أرض الإحتمالات. المؤسســة العربيـة للدراسات والنشر. بيروت: 1988. ص ص : 49 ـ 57.

فخري صالح / الأردن

قصة قصيرة

... في تلك الليلة ...

ربيعة القرشيشي

الإهداء: ... إليك... كما أريدك أن تكون ...

... حبات المطر تنقر نافذتي... تناديني... تصرخ بي... آلمها البلور يصفعها حدّ التّفتّت والتّلاشي... ارتدّت إلى نفسها كليمة... لففت الشّال حول عنقي... قمت من مكاني... اتجّهت نحو النافذة... يحلولي متابعة المطر النّازل في صمت... أحاول عدّ حبّاته... لا أستطيع... البرودة تتسرّب إليّ... تتحدّى الدّفء وتصلني... «... ضمّني إليك أكثر...»... أغمض عينيّ المثقلتين حنينا إلى غدلن يكون... بكلّ حبّه لي يحويني زمانا... يدثّرني مكانا... أندسّ في صدره... تعبث أصابعي الرّقيقة بغابته... اقتلع ما بها من نباتات... ينفجر ضحكا... أبدا لا يغضب في وجهي... يتململ في مكانه... يغادر الدّفء خفية عنّي... أتحسّس مكانه... لا أجده... ألحق به... رائحة القهوة المزهّرة تملؤني... أتنفّسها بعمق... آخذ منه فنجانه... أسكبه في جوفي... خليط فريد شهيّ... أتلمظه... له طعم الحلم ورائحة الغيب... أتمسّك ببرنسه... أتمسّح به.... «... خذني معك... أريد أن أراه... لم أطأه قط...» ... يده الغليظة وهي تمسح بقايا دموع متحجّرة بمقلتيّ... زرعت الأمن بداخلي... كانت الطريق طويلة إليه... كنت أجري كلّما فاتني بخطوات... أتوقّف كلما لحقت به... أجلس أحيانا على قضبان السكة الحديدية... ألقي بحصيّات هنا وهناك... أمسك بطرف البرنس... أدخل رأسي... أتعثّر... أسقط أرضا... يكاد يسقط معي... يحملني على رقبته... أجد نفسي كبيرة... كبيرة... لا أحد مثلي... أتمنّى لو يراني الجميع... لست وحدي بعد اليوم... أبي هو عالمي الكبير... لن أنشطر عنه أبدا... قشعريرة حادّة سرت بجسمي ونحن ندفع الباب الكبير... أدباش ملقاة على طول القاعة الفسيحة... حرارة بلا هوية صدمتني من الخطوة الأولى... روائح كثيرة متنوعة... لم أعرفها... رفضها أنفي... تراجعت... جذبني في رفق إلى إحدى الزّوايا... وجوه غريبة... غليظة... تتبادل الكلمات... الضّباب الكثيف يحجب معالمها الأصل... التصقت بأبي أكثر ونحن ندخل «القاعة

الساخنـة»... اشتدّ سعـالي... الماء البارد يصل حلقي قشعـريرة وخـوفا... رجـال كثيرون قبّـلوني... مسـدوا جسمي العـاري... ربّتوا على ظهـري... غسلوا شعري... لم أعرفهم... لم أفهـم همهماتهم. فقط وأنا أنام وحيدة في غرفـة منفردة تلك اللّيلـة... فهمت بعضا ممـا همسوا بـه إليّ.. «... النوم في غرفة وحدك راحة...» ... «الأحلام العذبة لا تحبّ من يشاطرها الوسادة...» ... «لا بدّ من امـرأة أخرى إلى جـانبك... فأنت بنـ ...» ... البرد شـديد... لا أقـوى على مـدّرجليّ الصغيرتين... أدسّ رأسي في الوسـادة... تأبى أجفـاني الإنطبـاق... دويّ الـرّعـد يجمـدني أكثـر... وقع المطر على السّقف حصى يـدمينـي... أنكمش على نفسي... يسقط غطـائي أرضـا... أنـادي أبي... لم يسمعني... هو ينام ليلتـه الأولى... في الغرفة المجاورة... إمرأته الثـانية بثته دفـءا جديـدا... غريبا... كم كـرهتها... أخذتـه مني... حتما وأنها تندسّ في صدره الآن... تعبث بغابته كما كنت أفعل... ارتفع صوتي شهيقا متقطعا... قمت من سريـري... دفعت البـاب... كـان مغلقا من الـداخل... البرق أضـاء الغـرفة إضـاءات خاطفـة... أسرعت إلى فـراشي... النّور ينقطع ... يـداي لم تستطيعـا إعـادة الغطـاء إليّ... المطـر غـاضبـا يصفع الأرض... حتما وأنها تتلوّى بين يديه... تماما مثلها هي الآن... كم أكرهها... بكلّ الطّفلة فيّ أكره... وأعرف لماذا أكره... ما كرهت أحدا في حياتي كما كرهتها هي... أبي لم يعد أبي... كثيرا ما أراه يأتيها محمّلا بالحلوى والتّفّـاح... أحيانا يمدّني خفية «مصاصتي» المفضّلـة بعصير اللّيمون... أهـرع إلى ما أسمّـوه غرفتي... لم تكن غـرفـة كما وددت أن تكـون... هي مـزيج من الـرّوائح والأدبـاش... تـوابل... مـؤونة... أغطيـة... شـاطـرتني القطّـة إحدى زواياهـا لتربيـة صغارهـا... كثيرا ما كـانت تشاطرني الطّعـام أيضـا... كنت بحـاجة إلى من يملأ ليلي بأنفـاسه... يعيرني أحـلامه... ولم تبخل القطط عليّ بـذلك... لذلك أحببتهـا... جعلتها تنـدسّ في غطائي... تبثّـه حرارة أنفـاسها... فأنـام على غطيطهـا الحالم... أضغط على المصاصـة بين أصابعي... أغلق البـاب ورائي من الدّاخل ... أرتمي على الفراش بحـذائي... أدخلها فمي... أغمض عينيّ... وأحلم... أحلم ألوانا وأشكالا وظلالا... وميض البرق يشتّـت هذا الشريط... أبتلع المرارة بحلقي... أثـاث بـاهت... بارد مثلي ... ينتظـر من يبثّـه دفـءا وحـرارة في هـذا اليـوم الأخير من السّنـة التي لن تعـود... حـرارة المدفأة زادتني تشنجـا... فتحت خـزانتي... أخـذت منها أجمل مـلابسي الداخليّـة وأثمنها... أسكنتهـا حقيبتي الصغيرة... لم أفرغ منها أشيـائي الحميميّـة... قارورة العطر «سمـوم»... أحمر الشفاه... طلاء الأظافر... تـركتها كلّـها...

لبست معطفي الأسود الطويل... لففت الشال حول رقبتي... كم أحبّـه تعبث به رياح الخريف... يمتزج بخصلات شعـري... يلتحم بها... يعطيها لونه...

تهبه نعومتهـا... وقع المطر على المطرية ممتزجـا بوقع أقدامي على الاسفلت فـوضى رائعـة... حـاولت التقـريب بينهما... جسم غـريب يلتصق بي «... أرجوك أحتمي معك بعض المسـافة و...» ... كان مبللا حتى النخاع... «... سيارتي تعطلت... اضطربت... الطقس... لم اسمعه... فقط كنت أنظر إليه... عطره المستـورد لم يشدني اليـه... عيناه كـانتا مثل عينيـه... واحة النخيل مسـاء خـريف ممطـر معطـاء تداهمني غـريبـة... انفـاسـه بعثت في دفء مكهربا... مديده مودعـا... وددت لو أنه واصل معي بقية الطريق... وصلت «الحمام»... دخلت روائح غريبـة صدمتني... رفضهـا أنفي... أجسام كثيرة مختلفة... تتمطى... تتمايل عـرائس برنزيـة... عاجيـة من الصعب التعرف عليها... سبقتني إحـداهن إلي... أخذت حقيبتي... نـزعت معطفي... سلمتها بقيـة ملابسي... مـاذا لو أدخل عـارية تمامـا... نـزعت ما بقي من مـلابس داخلية شفافـة.. طالعني جسدي عاريا في المرآة... توقّـفت قليلا... كم أبدو جميلة رائعة... ماذا لو خرجت يوما هكذا وسط الناس... لففت أسفلي بقطعة من «السـاتـان» الاصفـر الـذهبي.. دفعت البـاب الخشبي الكبير... روائح «شنبوان»... «صـابون»... «جال دوش»... عطـور... طفل معطرشي... تسبح في الفضاء الرطب... تلتصق بقطرات المطر النازلة من السقف... أراها فقاقيع حمراء... وردية... صفراء... خضراء... تتهادى... أمـديدي... تتلاشى قبل أن تصلها... جلست على الدكّة... ماء الحوض الدافئ يداعب أصابعي... الحرارة تسري في جسدي البارد... أحرك رجلي في عبث... تتطـاير القطرات... تصيب بعض الجالسات... يتبـادلن النظرات... يتهامسن... «... من تراهـاتكون...» ... «... هي غـريبـة... لم أرها قط...» ... «... لقـد رأيتهـا من قبل... أين.... متى... لا أذكر شيئا... فقط رأيتها...» ... نادتني «الحارزة» .... تمددت على ظهري... على بطني... على جانبي... مسـدت جسدي... دلكته... نقرت كتفي نقرات خفيفة سريعـة... سرت الذبذبات دافئـة هادئة في جسدي... احسست بارتخاء دافق... همست لي الحارزة... «... وهـذه «الشاشـة» السوداء أسفل الإبط... أهي...» ... أمي وهي حـامل... اشتهت عنبا أسـود في عز الشتـاء... جال أبي كل الاسواق... بعث الى اصحابـه ومعارفه.. آلمها ان لا يلبي لها ما تمنت في حملها الأول... كـانت ترى الدنيـا عنبا اسود امامهـا... كل شيء له طعم العنب ولـونه... عنـد ولا دتي طلبّت حبة عنب قبل ان تغمض عينيهـا للمرة الاخيرة... غرس لها أبي بجوارها دالية تشاطرها صمت الليل ووحدة الفـراغ... قـال لي انها كانت تشبهني كثيرا... وانها اختـارت اسمي خصبـا وحلما... احببتهـا كثيرا.... أكثـر من أبي بعـد زواجـه الثـاني... مسحت «الحارزة» دمـوعي... لست أدري كيف تفطنت اليهـا... لا أحـد قبلها رآهـا

بعيني... اقتربت امرأة مني... كانت سمراء... ممتلئة... «... لم أنجب أبناء... عشرون سنة وانا احبه كل شيء... تركني اخيرا... لم أبك... السجائر... القهوة تملأ...» ... نفثت الدخان عاليا... وددت لو أفعل مثلها... لم أدخن قط من قبل... رغبتي في التدخين في تلك الآونة كانت جامحة شديدة... «... لم أستطع التخلص منه... ساقضي معه هذه الليلة... الليلة الاخيرة من هذه السنة... لم اعد اسمع صوتها اختلط بأصوات الاخريات... امتزج بالصابون... و«الجال دوش»... ومزيل العرق... وحيدة أنا في هذا الدفء الجسدي... كل واحدة تحلم ليلتها... تسطرها... تنتظرها... وقفت... سكبت «الحارزة» الماء على جسدي... ماء صارخا لذيذا... حرك في ألف شهوة وألف غيب... قالت صاحبة الحمام... «المطر مدرار ينزل... ربما ينقطع النور... ربما...» .... تكلمت احداهن «... لن أذهب إلى الحلاقة... هو يريدني هكذا بشعري المبتل وجسدي... رائحة الحمام في تسكره...» ضحكت أخرى «... سنسهر خارج البيت مع اصحابنا... سنبقى حتى العام المقبل...» غامزة بعينها اليمنى في دلال... تمتمت ثالثة «.... بخور وشاي... دفء عائلي لاأريد به بديلا...» تعالت همساتهن... عانقت احلامهن الفضاء الساخن... اكاد أراها... المسها... نساء... حمام... رأس سنة جديدة... خليط أنثوي له طعم الغيب ورائحة الحب... وجدتني نشازا في هذا العالم... ابتعدت... غمرت جسدي رغاوي وعطرا... لففت المنشفة الوردية حوالي... اتكأت قليلا... لبست فستاني المخملي الأسود الضيق... تكحلت... تعطرت لم اعرف وجهي في المرآة... لم أعد الطفلة الصغيرة التي تندس في صدر أبيها تعبث بغابته... الصبية التي تنام وحدها تلتذ «المصاصة» بين شفتيها ليلا... استيقظت... طالبتني بأشياء كثيرة... اعرفها... اتجاهلها دائما... لبست معطفي الطويل... «ما اروع عطرك...» ... قالتها «الحارزة» وهي تشد الشال الى عنقي... ناولتها قارورة سموم... سقطت من يدها المبتلة... تطاير العطر... ملأ المكان... ارتجف له الزمن... «... انه فأل خير...» ... ابتسمت لها وانا ادس في يدها ورقة نقدية... الريح باردة ندية... تنفست بعمق رائحة العام الجديد تتهادى... تناديني... تصرخ بي... انتشيت بها... ابتعدت عن حفرة امامي... توقفت سيارة رمادية «ب. م» ـــ الى جانبي... أطل منها وجه غريب... رائحة عطره المستورد لم تشدني اليه... فقط عيناه كانتا مثل عينيه... واحة النخيل مساء خريف ممطر معطاء... تداهمني... تقتحمني... تغتصب لحظاتي... فتح الباب... جلست الى جانبه... انسابت السيارة تفتت روائح العام الجديد... تمزق احلامه المتناثرة على طول الطريق... رفعت بلور النافذة وحبات المطر تنقرها في عنف تناديني في صمت...

شعر

مديح المسافر الأحد ذي الوجهة المتعدّدة

محمّد الهادي بوقرّة

من مدينة قلبك تبدأ كل الدّروب
وحنينك يبقى مسافرها المفرد المشتهى
من قرارة حبّك تبدأ كلّ الغيوب
وإلى سدرة المنتهى
في سماوات روحك يعرج سرّك كي
يتنزّل فيك على موجة من دمك
تتعالى على درج النّور ترسم عبر فضاء الشّحوب
قوس ألوانها النّادرة
وتبوح بأسرار أشواقك الصّابرة
تتعالى إلى قمة الحلم ثمّ تعود لكي
تتجمّع في قدمك
رغبة في الرّحيل إلى أفق ظلّ يحيا على حلمك
ويعيش على وجع في قرار القصيد القديم الّذي ظلّ يدمن من ألمك
والّذي لم يزل ينثر الكلمات مضمّخة بالصّبابات، مطلولة بدمك،
ترتمي كالفراشات عبر المدى من فمك
وعلى صهوة الحلم تاتي مخيفا كذكرى

وعنيفا كبشرى،،
ووحيدا تجيء تحرّك في طرقات القوافل
كل حنين الخيام إلى نور آفاقها
وتوزّع عبر ليالي الهوى
والجوى...
كلّ أشواقها...
وتحرّك وهج الصّبابات تحت بلاسم عشّاقها،،
وتحرّك كلّ مواجيدها...
وتوزّع قلبك أقمار عشق يحدّد نبضي مطالعها
ويوقّت كلّ مواعيدها،،
وتجيء الأغاني تبلّل درب رحيلك أو مقدمك،،،
يا وحيدا تسافر فردا على كلّ درب
يا وحيدا تسافر فردا وترجع من كلّ صوب
يا وحيدا تعود إلى أوّل النّبع في كلّ قلب
وترى الأرض تشتاق ظمأى إلى همس خطوتك الواثبة
وترى الأفق المرميّ يحنّ إلى لمس نظرتك الثّاقبة
أيهّا الواحد المتكاثر عبر اختلاف الثّنايا تجمّع كي أراك
أيهّا الواحد المتفرّد عبر ائتلاف المرايا توزّع كي أراك
إنّني لم أزل ساهد العين أتبع عبر اللّيالي سراك
عاشقا لم أزل
أترقّب خطوتك المستحيلة أو لفتة الحلم حين تطل
عاشقا لم أزل
في اصطباري
وأرى،،،
ما ترى،،،
قمر الحلم حطّ على غصن زيتونة القلب،، ثمّ ارتحل
حاملا من حبيبات زيتونة القلب زيت اندهاشي
إلى وهج شمس نهاري
حاملا للبلاد البعيدة باقة فلّ

وسواقي من خمرة وعسل،،،
لم يحرّك جناحيه في فسحة الحلم حتّى استعل
وأنا عاشقا لم أزل
في انتظارك أزرع كلّ المدى لهفة
وأصليّ وحيدا إلى أفق الإنبهار
لا أنا في انتظارك حقّقت حلم الآزل
لا، ولا أنا منه برئت،، ولا العشق أنصفني فقتل...

محمد الهادي بوقرة
1992/11/30



شعر

أول الصمت ...
آخر الكلام

درغام سفان

(1)

قلبي ... ثمره
تسعى الديدانُ إليها ... ونسانيسُ الغابةِ
غربانُ الياسِ ... وما أدراني...
هل تتعفّنُ يا قلبي
أو تخمشك إمرأة ببراثنها...؟
هل تحملكَ الريحُ... الروحُ إلى آخرةِ الدنيا...؟
أم أنكَ تسقطُ بين الأنقاضِ...؟
إذًا يا قلبي....!!

(2)

تُصفّي القصيدةَ ممّا بها...
كدرِ الماء ... من تمتمات الصديقِ المشاكسِ
تامرها تنحني.... أو تغَضُّ البصَرْ
ترشُّ عليها الأمانَ... وتُلبسها غيرَ أثوابها

تمدُّ لها أفقًا أزرقًا وجناحَيْ حريرْ
ولكنها لا تطيـرْ...
لا تطيـرْ...!

(3)

في إناء من الرمل
ما زالَ يرشحُ قلبُ الفتى
والنّدامى ... شظايا ... شظايا
وكيس الذكريات على كتفيه النحيلين
ما همّه الدربُ... ما ضللته عصافيرُ... وأغانيه
في كفِّه وردةٌ ... وقميصٌ من الحزنِ يستره...!!
لم يعدْ يذكرُ الآن
كانت رياحٌ تهبّ على جهة القلب
ثوب الزّمرد... عينانِ واسعتانِ...
الفتى لا يشيبُ
يخبّىء أحزانه في ثياب المحاربِ
سرْبٌ من الكلمات يحطّ على راحتيه
الفتى ياله... ياله....!!

(4)

اقتربي ...
هذا حلم الشاعر يطوي الماء
وينسج في الظلّ رداء الغبطة...
ابتعدي...
هذا حزن يكوي الأضلاع
وشيطان يتعبُّد في الخلوة

اقتربي
ابتعدي
ها... ذاك... أنا....!!

(5)

يا أبي ...
لم أنكّس عقالك....
لم أحن رأسك... لا يا أبي
لي سماء.... وغنّيتها
لي عصافير.... أطلقها
ما غدرتُ بجاري... ولا خنت صحبي
ما مددتُ يديّ... ولم أروِ أرضي بماء حرامٍ
وما طاش سهمي... ولكنها الريح
لم أستبح وردة يا أبي....!!
هكذا راودتني القصيدة في نفسها
هكذا ... يا أبي ....

درغام سفان
(سوريا)

شعر

1

أنا : هو

● الطيب شلبي

أنا : الألف...
قدمي علَى أعناقِ الشعراء
أنا.. الفراتي.. لو سقطتَ قرطبة أخرى
سارت فُلك على أدمعي
أنا .... الخنْصر
أنا ... البنْصر
أنا .. الجيم قدّس سري
وسيّد هذا الجبل المملوك
أنا .. لا لون لي سوى : أن البستان
يشبهني
أنا .. الماء.... بعيد عن البحر
أنا ... التراب ... بعيد عن الرمل
«ووقتي ليس له طرفان»

2

«مولويهْ»

مولايَ
لقد جمعوا الحدائق في السلال وعادوا
مولاي
كل الذين لقيتهم في الطرق أنكروني :
إن سلّتي فارغَةْ
وقلبي ممتلىء بالكنوزْ
مولاي :
لقد كانوا يودون الذهاب من دونك..
وحين أضاءت حكمتك
أعادوا النيران إلى المَصابيحْ
مولاي :
أفرغْ سُبلي من الناس
فهم وحشتي.

قصة

مطر تحت الشمس

عبد الستار ناصر

> «المرأة ليست خطرة أبداً، إلا عندما لا نحب سوى امرأة واحدة».
>
> «جان ريفو»

«1»

يا سيدتي، والله، أنا رجل بسيط جداً، كيف تصدقين ما يقال عني، وأنا مجرد إنسان من لحم ودم؟

الزقاق الذي مات فيه (عبود) لم أره منذ عامين، وبيت السيدة (نيزك) لا أعرف أين مكانه بين بيوت المحلة، ومقهى الحاج (حسون) لم أشرب الشاي فيها منذ شهور بعيدة، وفلاح القصاب نسيت ملامحه منذ زمان.

كيف يا سيدتي ـ وأنت أشرف نساء المحلة ــ تقولين في مركز الشرطة: إن لا أحد يملك القوة على قتل عبود واغتصاب السيدة نيزك وسرقة الحاج حسون وتمزيق جثة القصاب، سوى (ياسر بن خليل)؟

* * *

ماذا فعلت بك، حتى تأخذين عنقي إلى المشنقة؟.. هل صار الحب في هذا الزمان أكبر العيوب، أم صار الحب جريمة من لا يعرف كيف تكون الجريمة؟

أنا خائف عليك يا سيدتي، فقد صار على رجلٍ مثلي أن يعترف بما

جرى، ولست أرى من الخير ـ من أجل إنقاذ شهيقي وزفيري ـ أن أسكت في حضرة القاضي على حقيقة لا يعرفها سواي، وعلى جرائم لم يرها غيري.

وسواء أصدقوني أو طردوني، سأحكي القصة كما عشتها بنفسي، وأرفض الحب الذي كان اللعنة الوحيدة التي تطاردني.. وحتى تصدقين إنني ما زلت احبك يا سيدتي، أرجو منك الهروب والسفر إلى خارج البلاد لئلا يقال في يوم من أيام عمري: إن الحب صار مجرد كلمة لا معنى لها.

«2»

يا سادتي القضاة، أعرف إن الوقت الذي تمنحونه لمتهم مثلي، لا يزيد على نصف ساعة، وإذا ما رأيتم أن (الحكاية) غريبة ومغرية ومثيرة، ربما تعطوني فرصة أطول حتى أشرح القضية التي جرجرتموني بسببها.

لا أريد القول إنني بريء، فقد علّمني زماني إن المذنب ليس من يقتل بيديه أو يسرق بنفسه أو يغتصب إمرأة وهو بكامل وعيه وعقله، إن المذنب ـ يا سيدي ـ قد يختفي وراء الجدران ولا يظهر من جسمه سوى الشهيق والزّفير، بل، قد لا يظهر على مسرح الجريمة من أثر أو إشارة أو علامة ـ مهما صغرت ـ تشير إليه أو تعلن عن تورطه في شيء.

وأنا يا سيدي، أترك جسمي تحت مشيئتكم، للحكم بما ترون، لكنني قبل الوقوف تحت حبل المشنقة، أريد أن أعترف بما جرى، فقد مات الحب الذي كان وراء جرائمي وصارت (الحبيبة) مجرد ذكرى.

واعترف أيضا، إنني سأموت نادما على سنوات عمري، فقد مرّ ما يزيد من نصفها في وهم كبير وأكذوبة بلا حدود...

واعذروني إذا اختصرت اعترافي وقلتُ لكم: نعم، أنا الذي قتل عبود واغتصب السيدة نيزك، أنا الذي سرقت الحاج حسون ومزقت جسد القصاب... وما دام الموت قد صار من نصيبي، لا أمنع نفسي من القول: إن ما جرى في محلة (أبو جابر) من سرقات وقتل واغتصاب لم يفعله سواي، إلا إذا كان بين جريمة وأخرى مجرم محترف، تمكن من دخول المحلة إبان غيابي عنها في أيام حبّي وأسابيع العسل التي كنت أمضيها مع المرأة الوحيدة التي أحببتها، تلك التي لم أذكر إسمها أبدا، فقد تعلمت أن أقول عنها (ولية أمري) والتي غلّفت مشاعري وغطت على حواسي ومجسات عقلي بشمع أحمر لا أعرف حتى الآن ـ وأنا بينكم في هذه القاعة المحترمة ـ كيف

تمكنت في وقت قصير أن تسلبني إرادتي وصحوي وآرائي وأفكاري، وكيف استطاعت أن تمزج أعصابي ومساماتي وأوردتي وشرايين رأسي ونبض قلبي وأخاديد عقلي، بأعصابها الكهربة ومساماتها الملتهبة الحارقة وأوردتها المسمومة وشرايين رأسها المتشابكة المزحومة ونبض قلبها السريع وأخاديد عقلها المتورمة من أيام الصبا والمراهقة.

* * *

قلتُ لها عشرات المرات: إنني رجل بسيط، لماذا ترهقينني بما لا يقوى عليه جسدي وعقلي؟ كان يكفيها أن تمنع نفسها عني وتطردني من فراشها المجنون، حتى أفعل ما تشاء.

أنا يا سادتي رجل مريض، كنت أحتاج إلى سنوات طوال حتى أصدق تلك النعمة التي سقطت من آخر السماء ...

كانت (رشا) أجمل إمرأة على اليابسة، رأيت مئات المدن على شاشة السينما وانبهرت أمام التلفزيون الذي سلّمني آلاف النساء الجميلات، لكنني - يشهد الله - لم أعرف إمرأة أغرب ولا أعذب ولا أرق ولا ألذ من (رشا) أبداً، لست أدري، حتى الآن، وأنا بينكم سادتي، ما هو سرّ إحساسي بامتيازها عن النساء، وكيف أرتعش بين يديها وأجلس في حضرتها مثل فأر منكسر عاجز حقير؟!

* * *

المطر الذي يسقط في الشتاء، علّمني البكاء على مصيري قبل أن أعيشه اليوم بين عيونكم، المطر يا سادتي القضاة، كان جلادي وحبيبي، فقد بكيت في شوارع بغداد كلها وامتزجت دموعي بكركرات المطر النازل فوق خدودي، لم ينقذني من عيوبي وضعفي سوى هذا المطر العاشق الذي سميته صديقي وأنا أمشي إلى (رشا) أو أخرج من بيتها في أول الفجر.

كذبٌ - يا حضرات السادة - كل ما يقال في النهار، ناقص - والله - كل ما نشعر به تحت سياط الشمس.. النيل وحده، والسحب السود وحدها، والخمرة المعتقة الساحرة وحدها، من ينطق بالحقيقة. وأنا، لا أريد من يدافع عني، بل، سأعترف بالمزيد، حتى لا أترك فرصة واحدة لاختيار عقوبة غير الموت، فهو، يا سادتي، طوق نجاتي الوحيد من قضم نفسي بنفسي.

لا أريد أن تأخذكم الرحمة بي، أنا رجل سافل، مريض، جائع، خبيث رخيص، صغير، أقسم بالله إن ما يقال عني في المقاهي والبيوت والبارات،

هـو جـزء جـد يسير من سفـالتـي وأمـراضي وجـوع جسمي وخبث عقلي ورخص نفسي وصغرهـا.. إنني إذا ما رميتمـوني في نهر عذب زلال، تكفي مسامـة واحدة من مسـاماتي أن تفسـد هذا النهـر حتى يصير مجرد سم تعافه حتى الكلاب الجرباء.

كل مـا يقـال في النهـار، يـا حضرات القضـاة، عن الخلق والنـزاهـة والضمير والشبق الجسدي والستر والشرف الـرفيع، مجرد زفير عابـر بلا شهيق.. كلام في الهواء يسبقـه أو يسابقـه النسيان، فهـو، باذخ ولكن دون معنى، وجميل ولكن لا حياة فيه، صـادق، ربما، لكن الصدق فيه محسوب باليقظة والحذر والمحاسبة والتباهي.

أما في الليل، عندما تنزل السحـب السود وراء النوافذ وتأتي الخمور، فهي حكاية ثانية، يسافر الخلق فيها الى الخالق، وتهاجر النزاهة في نزهة لا رجوع بعـدهـا، ويصير الضمير بحاجـة إلى ضمير، ويذهب (الستر) منكسرا وراء الستـائر، ويضحك الشرف الرفيع مـن تأريخه السمين الكاذب... أمـا الشبق الجسدي ــ سادتي ــ فهو الحقيقـة التي لا تسافـر ولا تهاجر ولا تحتاج إلى شاهـد كذاب، ولا تذهب خلف الحيطان ولا تضحك مـن ماضيها على الاطلاق.

الليل والخمرة إذا مـا اجتمعا في مكـان واحد، تتنفس فيـه إمرأة مثل (رشا) لا أصدق حينهـا كل شيوخ الدنيا ولا أميل برأسي صـوب قساوسة الكون ولا أملك الثقة ـ عندها ـ بأنبياء الماضي ولا بسادة الحاضر من شمال الشمال إلى جنوب الجنوب.

* * *

لكن (رشا) كانت تفهم كل نبض وراء جلـدي، تشم رائحة إشتهائي وتـرى رعونتي وراء هـدوئي وصبري، أعطتني ما أريـد بعد أن مـات من عمري نصف عمري، جعلتني عاشقا وخادما وقاتلا وساعيا للبريد.

أقـول لكم يـا حضرات السـادة، إنها جعلتني (قـاتـلا) ورميتُ هـذه الصفة بين بقية الصفات، ما الفرق، فقد كان المستحيل أن أنام على فراشها، ومن أول المعجـزات : أن أكـون الخـادم المطيـع، ومن البـؤس على رجل متماسك مثلي أن ينقل أخبار إمرأة ويأتي ببريدها بانتظام ودقة.

وعندمـا صرت هذا القاتل ـ الـذي ستأمرون بشنقه حتما ــ جاءني أمرهـا دون أي استغراب وبلا دهشـة أو عتاب أو إعتراض، كـان ياسر إبن خليل الذي أعرفه وأحمل إسمه وملامحه، قد مات فعلا، لم يكن هذا العاشق

الخادم القاتل، سوى هيكل ممسوخ منسوخ منه، يمشي باغراء جنسي ويقتل باغراء جنسي ويبعث البريد باغراء جنسي ويغسل الصحون باغراء جنسي، وكان المستحيل أن أفطن إلى نفسي، من أكبر المعجزات أن أكتشف المرض الذي أصاب أعضائي وانغرس بين كريات دمي ومجسات عقلي..

صحيح، إنني في مرة واحدة فقط، صحوت من شبقي ورأيت كم خسرت، وكيف رميت نفسي الى بئر غرائزي، لكنها، اقتربت مني، وأعطتني ما كانت ترفض أن تعطيه.

عندها مددت أصابعي إلى رأسي امسكه لئلا يتناثر من فرط الشهوة، فقد كانت (رشا) في تلك الليلة إمرأتين في إمرأة، تأخذني من الشمال الغربي وتغطس في شهيقي إذا ما انتقلتُ إلى الجنوب الشرقي.

كيف أترك هذا الليل الساحر، والخمر المعتق من زمان الحرمان؟ كيف يا سادتي أبصق في النعمة التي وهبها لي المطر الذي أحب والسحب السود التي أنام تحت إبليسها كيف أترك هذا الغزال المشاكس العنيد المخبول الذي يصارع نفسه و.. يصارعني؟

إنني أعرف حجم ذنوبي..

لا أريد الحماية من أيما (بشري) في الكون، لأنني قبل أن أحكي لكم ما جرى، أرجو أن يعرف كل واحد منكم ـ سادتي القضاة ـ بأنني إذا ما رجعتُ إلى الحياة مرة ثانية، ورأيت (رشا) أو نصف (رشا) أو نظرة واحدة من رشا، سترون ياسر إبن خليل في هذا المكان وهو يعترف لكم : إن جرائمه كلها ليست إلا (مع سبق الاصرار).

«3»

في ليلة مقمرة، لم يظهر في سماء الله كما ظهر في تلك الليلة، جاءت رشا وأعطتني قنينة من أحسن أنواع الخمور، ما زلت أذكر ما قالت وهي تبتسم قرب وجهي :

ـ هذا هو سحر الطبيعة، مطر غزير في ليلة مقمرة، من يصدق هذا المستحيل؟

كان المطر العاشق، يساهم في تهشيم إرادتي. نظرتُ إلى السماء من نافذة مغلقة في البيت ، ليس غير المطر من يساعدني على البكاء، ليس كما المطر من يوقظني ويكشف حالاتي.. تمنيت أن أكسر النوافذ كلها حتى

أصغي إلى صوت المطر النازل من غيوم الله.

ـ أي سحر عجيب في هذا الماء المتناثر من فوق البيوت؟

في تلك الليلـة، إقتربت (رشـا) من ضميري، لصقتْ جسمهـا بالـورم الخبيث الذي أورثـه جدي تحت غضـاريفي.. كانت تحدث في دهـاليز عيني وتهمس في رجولتي وخيبة ضلوعي :

ـ ياسر، هل تعرف عبود؟

ـ أعرفه يا رشـا.

ـ قـال لي، إنه أحسن منك وأقوى، وسوف يأتي الليلـة إلى داري.. أنا خائفة.

يا سـادتي القضاة، أعـرف إن الوقت ثمين، وأنـا لا أريد الـدخول في التفاصيل، ذهبت الى عبـود في منزله، وقبـل أن يضحك مني، كانت السكين تمرح بين ضلوعه وتحت عنقه السمين.

الـزقاق الـذي يعيش فيه (عبـود) مزحـوم بالنـاس، والناس الـذين يعرفون عبود، مـزحومين بالقناعة، وأنا دخلت في الزحـام وخرجت بلا أثر ولا دليل، حتى إنني لم أخبرهـا بما فعلت، فقـد جـرى كل مـا جـرى دون تخطيط، ولم أصدق إنني قتلت عبـود رغم مرور عـامين أو أكثر لا أدري.. فهذا الرجل المسكين مـات في ذاكرتي قبل أن يموت على يدي، وأنـا ـ يشهد الله ـ مازلت أسأل نفسي :

ـ هل تراني قتلت عبود؟

أخـذتني (رشـا) إلى شمال العـراق، أسبـوع من الجنـون والضحك والدعارة في بيخال وشقلاوة، قالت آلاف المرات :

ـ أنت الرجل الذي أريد، فقد قتلتَ هذا السافل الذي أراد أن يسرقني منك، أنت سيـدي وحبيبي، إفعل ما تشـاء بي، فقد صـار جسدي خـادمك الدائم حتى نموت.

لا أدري والله يـا سادتي، من قتل عبـود، لكنني أعيش حـالة تشبـه الكـابوس، تتكـرر في يقظتي عشرات المرات، وتسلبني هـدوئي وتمنعني من النوم، فهذا الرجل الذي لا أعرفه (مات) لكن موته يشبه ما جرى في شرايين رأسي وخيالاتي، أما كيف طعنته بيدي وكيف رأيته يموت، بل كيف انغرزت رأس السكين في لحمه ودمه، فهذا ما لا أفهمه ولا أعرفه ولا أشهد عليه.

إني أعترف بـالقتل ــ يـا قضـاتي ــ لأنني لا أريـد العيش في عـالم مزحوم بـالدماء والسرقات واغتصـاب الأبرياء، وأرجوكـم حذف سؤالاتي

شكوكي وظنون عقلي.. أنا القاتل الوحيد.. المغتصب الوحيد، والسارق الوحيد في محلة (أبو جابر) وأنتم تعرفون إن الاعتراف سيّد الدلائل، ولم يبق من العدل سوى قراركم بشنقي وانقاذ الناس من شروري وأمراضي وقسوتي وجوع مساماتي.

من العيب - يا سادتي - وأنتم أنبل أبناء الشعب، أن تتركوا (المجرم) يعبث في حياة الناس، وأنا مجرم بالفطرة، مريض بالوراثة، وكيف تراني أفسر إغتصاب السيدة المحترمة (نيزك) إذا لم أكن مجرما ومريضا؟

السيدة نيزك يا قضاتي، واحدة من نساء المحلة، لا أريد القول إنها طيبة وشريفة وكريمة النفس، هذه صفات لا معنى لها إذا ربطناها بنيزك، فهي طاهرة وعفيفة القلب وبريئة الضمير والعقل معا، لا ذنب نحسبه - نحن - أو تحسبه (ولية أمري) عليها سوى إنها بعيدة عن جلسات رشا وسهراتها، وترفض الجلوس في بيتها ومعاقرة الخمرة والرجال كما تفعل سيدتي.

ولست أدري - حتى الآن - لماذا طلبت رشا أن أذهب في آخر الليل إلى دارها واغتصبها بالعنف والسلاح والغضب.

أنا رجل تائه يا سادتي القضاة، ضائع في مساحة صغيرة عنوانها بيت رشا وحدودها شبقي... لا أفهم كيف أو متى ولماذا راحت (ولية أمري) تحكي عن فضائحها معي وتروي قصة إغتصابي، رغم انني - حتى هذه الدقيقة - لا أتذكر كيف مررت من بابها وكيف دخلت عليها ومتى ضاجعتها على فراشها ، كما تقول رشا.

لكن حكاية إغتصابي نيزك، تسربت من بغداد الى السماوة ومنهما إلى البصرة، وعندما حزمت حقائبنا ورحنا في جولة سريعة إلى الموصل، رأيت أصحابنا هناك يسألونني عن الليلة الحمراء التي قطعتها في منزل الضحية.

* * *

يا حضرات القضاة، أنا رجل منحط، لكنني أقسم بالله وأقسم بالماضي والطفولة. بل أقسم أمامكم بروح أمي وأبي وشقيقي الشهيد، إنني لم ألمس جسد السيدة نيزك، بل، لا أتذكر أنني مددت يدي نحو أصابعها أو أي جزء منها، لكن تكرار السؤال من هذا وذاك جعلني أصدق رغم أنفي، بأنني فعلت هذه الفعلة الشنيعة، وإنها، كما تقول رشا، تمت وأنا مفرط في السكر والخيال والشبق العجيب.

إعذروني إذا بكيت، فقد صحوتُ من شبقي المريض، ولم أشرب

الخمـرة منذ أسبـوعين، وصـار من الممكن غسل ذاكـرتي من الصدأ الـذي تراكم فوقها.. أنا لم أقتل عبـود ولم أغتصب السيدة نيزك، لكنني لا أعرف ـ حقا ـ كيف سرقت مقهى الحاج حسون.

إن (ولية أمري) لم تخبرني عن هذا الرجل السافل الذي يختفي وراء هـذه الصفة السماويـة، ولم تنبس بكلمة واحـدة عنـه، ومازلت حتى هـذه الساعة، أعيش افتراضاتي، وأخـاف على نفسي من وسواس رأسي.. (ترى ما هي عقوبة السرقة وقد علمت إن النقـود التي سرقوها من الحاج حسون لا تزيد على عشرين دينارا ودراهم معدودة)؟

أنا أعترف بالمزيد، يا حضرات القضاة، وأحلم باليوم الذي أعرف فيه كيف سرقت مقهى حسون، لكنني أقول الحقيقة، بـلا خوف، إن هذا الرجل البخيل كان غـدويَّ الوحيـد، فقد رأيتـه يتسلل بعينيه إلى جسـدها، ويمشي خلفها مسافـة أمتار ليست قليلة، حتى يشبع من النظر إلى طـولها وظهرها وزوايا جسدها الفاتن.

رأيته مرتين، وكرهته آلاف المرات..

لكنني لا أعـرف كيف سرقت الدنـانير من مقهـاه، بل كيف مـددت أصابعي إلى ذاك المال الحرام، وأنا مستعد سـادتي أن أعيد المبلغ وأضاعفه عشرات المرات ــ قبل أن تأمـرون بشنقي ــ إذا كشفتم عن بصماتي أو بصمات غيري، فقـد عذبني إحسـاسي بالسرقـة أكثر ممـا عذبني إحسـاسي بالقتل والاغتصاب!

«4»

أنـا إنسان غير طبيعي، حـاكموني بقسـوة يرحمكم الله، فقـد أعطيتُ نفسي لـرذاذ المطر النـازل مثل الـذنوب، غسلت نفسي من عيـوبي بهذا الماء المخلـوط بذرات التراب، أي وهم سـاذج أن أحـاكم الماضي بالحاضر، وأيـة طفولة مذبوحة أن أحاكم الحاضر بنقاء الماضي القديم؟

ألا يكفي ـ يا حضرات القضـاة ـ أن تكون جريمة القصـاب وحدها، موازاة الحكم بقتلي وتهشيم أعصابي والبصق على ملامحي؟

إنها والله كافية ـ وحدها ـ أن تمنعكم من التشاور بينكم، وتساعدكم على الجزم بأنني ــ كما قلت لكم ــ مجرد إنسـان مـريض رخيص صغير خبيث، وإنني مجرد حيوان جائع لا يشبـع من ليل ولا خمر ولا نساء، فقد

أعطيت للشيطان حق التصرف بي، وأنا أحمل السكين في طريقي إلى منزل (فلاح) القصاب، وقبل أن أطرق الباب كان الموت - نفسه - يتربص لصق يدي.

يا لهذا المسكين الذي مات بضربة واحدة، والذي آليت على نفسي - وأنا أنفذ أوامرها - إلا تكرار الضربة بالسكين نفسها، عشرات المرات، ورغم إن فلاح القصاب مات من الذعر والمفاجأة، فقد رحت أمزق جسمه دون وعي وبلا حساب.. حتى رأيته مجرد كومة من لحم متناثر لا يربط بينها سوى إحساسي الذي قال لي : يكفي!

هل إكتفيت ؟

أبدا، فقد أخبرتني (رشا) إن فلاح القصاب دخل عليها وراح يسحبها كما الخروف إلى فراشها الدموي الفاحش - الذي عشتُ فوقه أحلى أيام عمري - وانه دخل فيها ثلاث مرات... بل قالت خمس مرات، هل تراها كذبت عندما قالت سبع مرات أو ثمان؟

ليس هذا ما يهمني، فقد آمنتُ بما تقول، وصار على رجل يعشق هذه المرأة أن يقتل من تجرأ على اغتصابها، أن يقتله دون رحمة ولا تفكير ولا شفقة.

إعذروني سادتي القضاة.

أعرف إن الشهود - كلهم - يقولون عكس ما أقول، وانهم عثروا عليه ممزق الاشلاء في دكانه الصغير عند أول الزقاق، لكنني أقسم بشرفي، إنني الوحيد الذي مزقه وأهانه وبصق عليه، ومازلت أستغرب أقوال الشهود، لماذا يدارون جريمتي وأنا أعترف بها؟

أنا قتلتُ فلاح القصاب، وإذا ما رجع إلى الحياة سأقتله ثانية وثالثة ورابعة، إرحموني - سادتي القضاة - فقد بكيت كما المطر الذي أحب، وغرقت في سيئاتي حتى النخاع، وأن لكم أن تأمروا بقتلي، فقد ضاع زماني وضعتُ فيه، وصار يكفيني أن أصدق إن (ولية أمري) قد ذهبت.. فهل تراكم تصدقون إن (ياسر إبن خليل) قادر على العيش بعدها؟

ماذا تريدون غير اعترافي بجرائمي حتى تأمرون بشنقي؟

أنا يا سادتي مشنوق بذكرياتي،

ساعدوني .

عبد الستار ناصر

قصة قصيرة

السعادة مع تأجيل التنفيذ

نورالدين كريديس

حَثّ المنصف خطاه لأنّ الساعة تُشير إلى السادسة الاّ ربع والقطار يغادر المحطة على الساعة السادسة وولّى وراءه بناية وزارة العدل والمكتب والملفّات وكامل أيّام الأسبوع.. اليوم السبت.. ولم يدر أيجب أن يشعر بالإرتياح أو باللاّمبالاة. لكن، بدا له أنّ من خلال تجربة السنتين اللّتين قضاهما بين منزلهم بالحمامات ووزارة العدل بتونس وكيفية قضائه لعطل نهاية الأسبوع، لا شيء يدعوه الى السرور والانشراح. لماذا؟ ربّما لأنّه لا يحبّ عمله بكيفية تجعل للرّاحة معنى. أو ربّما لأنّ الأشياء تساوت في عينيه. فكما أنّه لا شيء ينتظر من ألمكتب، لا شيء كذلك ينتظر من منزله وبقائه في غرفته.. ربّما لأنّ طبعه لا يميل إلى الانفعال ولأنّه تعلّم أنّ يوم الأحد يوم كسائر الأيّام. فليس هناك أكلة خاصة في المنزل، وليس هناك متعة للحسّ أيّ كان، تمارس ذلك اليوم.. اللّهمّ الحمّام.. حيث يذهب بعرقه وتعبه ويعود بعرق وتعب الآخرين.. لذلك لأسباب أخرى، لا نرى في عينيه ومضة ليالي السبت وهيجان الشباب الذين يقاربونه في السّن. لكنّه على الأقلّ، يشعر بنوع من الارتخاء. كمن يقوم بجهد متواصل لا يعرف معناه، ثمّ يسعف بلحظة توقّف.. هذا الإرتخاء يدبّ في الأعضاء ثمّ في الجهاز العصبي، فيبدو المنصف كالغبيّ، أو كالنّائم بدون لذّة. هذا الإرتخاء مصدره أنّه ليوم واحد سوف لن يأخذ القطار.. وسوف لن يأخذه القطار.. من الإثنين إلى يوم السبت.. على الحديد.. يستيقظ على الساعة الخامسة صباحا، محوّق العينين، رغم أنه آلى على نفسه الاّ تتجاوز السّهرة العاشرة مساء. متعب لا لما مضى، لكن لما سيأتي. كمن يعرف ماذا سيفعل واللذة الغائبة من هذا الفعل. يسوقه قطار السادسة إلاّ ربع صباحا إلى تونس، ومنها يعود به إلى الحمامات في المساء.. على الساعة الثامنة تقريبا. لأن القطار كالرّجولة.. وكالمال يحضر ويغيب.. أو قل يحضر قليلا ويغيب كثيرا. أو يتأخّر كثيرا.. ولقّح الزّمن والعادة المنصف ضدّ ردود الفعل الطبيعية عند حدوث ألتأخير. فأصبح تأخير القطار عاديًا وموضوع نكتة ومرارة وانتقاد للعرب وقلة نظامهم انتقادا شاملا.. كاملا.. ولمّا يأتي القطار في يموعده.. يندهش الجميع.. وتلك فرصة لعدم الذهاب إلى إدارة الخطوط الحديدية لطلب شهادة في تأخير القطار. كغيره.. لمنصف، مجموعة من

الشهادات تسلّمها من الإدارة ويمضيها بنفسه عند الحاجة. ربحا للوقت! إذن نوع من الإرتخاء.. لا أكثر ولا أقل.. في الحقيقة، لا يدري بماذا يشعر بالتدقيق. لقد تعلّم الاّ ينصت إلى داخله، وتعلّم الاّ يشعر أو ألاّ يعطي أهميّة كبيرة بما يشعر.. لذلك هو أوّل من يصعب عليه أن يعرّف ويعيّن بماذا يشعر. خليط من الأشياء المبهمة.. في داخله.. وعلى السّطح علامات الانهاك والغيبوبة..

عبر القصبة وأنهج المدينة العتيقة الضيّقة والملتوية، وعلى جانبيها حوانيت مختلفة بضاعتها الأساسيّة الانتاج التقليدي.. يعج النّهج الضيّق بالرّائح وبالغادي وهو لا يكاد يرى ما يدور حوله وما يصير وراءه وأمامه. يحاول بتجربته أن يربح دقيقة أو دقيقتين، بفضل ممرّ خاص أو بانتهاز فجوة بين المارين.. وتنفتح المدينة العربية على باب فرنسا والمدينة الحديثة.. فلا يأبه لها.. شارل دي قول.. ساحة المنجي بالي .. وأخيرا المحطة.. يتنفس جيدا مالئا صدره بالهواء ومطلقا إياه دفعة واحدة وطويلة. الشارع مملوء بالسيّارات.. والسيّارات بالنّاس والناس بشتى المشاكل والحلول والمشاريع والأحاسيس.. لا يبالي بها ولا تبالي به.. لكن لا يجب أن تصدمه سيارة ما على الأقل.. مع أنه لا يحب الحياة حبّا جمّا.. فهو لا يحبّ الموت.. لا يحبّ أيّ شيء جدّا.. يخاف من أن يحبّ جدّا. يخاف من أن يشعر بقوّة.. يقدّم إشتراكه إلى ألعون المراقب ويتّجه نحو ألرّصيف. ما إنّ وضع جسده على مقعد عثر عليه صدفة ولأنّ الحظّ معه، حتّى أطلق رئيس المحطّة صفّارته وتحرّك القطار. لو يحكي هذا القطار يوما كلّ القصص، كلّ أجزاء القصص الّتي تحدث في أحشائه... أوّل مرّة، ركب فيها القطار، كان مع أبيه .. وسجّل يومها كلّ المحطّات.. ذهابا وإيّابا.. حمّامات، بئر بوعرقوب، بليّ، قرمبالية، فندق الجديد، خنقة الحجّاج، برج السّدرية، حمّام الأنف، رادس، الزهراء، مقرين، جبل الجلود، تونس. وكان سعيدا. وكان أبوه سعيدا. وقصّ على إخوته وأمّه كلّ السّفرة كما عاشتها عينا طفل. أمّا الآن.. فيبدو له أنّه يعرف كلّ هاته المدن والحال أنّ معرفته لا تتجاوز أسماء المحطّات وأنّها لم تزد ولو قيد أنملة على أوّل سفرة قام بها.. إن لم تتراجع.. كان يفضّل النوم ولا يريد النّظر إلى ما يدور حوله. يهرب من عيون النّاس. يخجل أو يحسّ بالخطإ أو بعدوانيّة ألغير. يتفاداه. هكذا تعلّم. وحين تلتقي العيون، فهو أول من يغضّ الطرف... لكنه ليس ضعيفا. هو محتال وله أفكار ثعلبيّة أحيانا لا تدور بخلد إنسان.. وفيما بعد، تتالت سفراته عندما كان طالبا بكليّة الحقوق... كمّا كان في المعهد بنابل، كان يخطط لتونس، كان يعتقد أن حياته ستكون أحسن وأجمل. حياة طالب. ستصبح له منحة. ثلاثون دينار. سيأكل في المطعم الجامعي السّمك واللّحم كل يوم... سيشكل البنات.. وسيرتدي لباسا أنيقا.. كان هكذا يستطيع أن يتحمّل نمط عيشه في نابل.. كسكروت بالسردينة في منتصف النهار.. والريح والمطر والبرد في الشتاء على كتفيه والحرارة والغبار والاختناق في الصّيف... وتحصّل على الباكالوريا في المرّة الثانية. ووجّه إلى الحقوق. وتعرّت له الأشياء كما هي رويدا رويدا، وتعرّت له أحلامه ففقدت لحمها وأصبحت عظاما.. من المطعم الجامعي تحصّل على تسمّم.. حتّى أنّ رائحة الأكل أصبحت تثير في نفسه رغبة القيء.. ومن البنات، آلت به الظروف إلى نهج زرقون، ومن ثمّة إلى نهج عبد الله قش، ينتقي من بين المومسات أقربهن إلى ذوقه.. ومن الأناقة، لم يكن من الحلول إلا اختيار ملابس من القرانة.. ولكنّه يقول.. ويكرّر لنفسه بعد أن نسي أنّه حلم يوما وأنّ حلمه

خاب، أنّ الحياة الحقيقية هي بعد الجامعة.. حين يتحصل على الإجازة كما تقول أمّه، حينئذ... له السيّارة الفخمة وله الفيلاّ وله أجمل فتاة وله المطاعم الفاخرة... ويدرس ويدرس تحت ضوء هذا الأمل.. ويعلم كغيره أنّ ربع المترشّحين على أقصى تقدير ينجح.. ويقول لما لا أكون من هذا الرّبع؟ انّه يدرس ضدّ كلّ شيء. ضدّ الفشل وضدّ القينيا وضدّ نفسه في آخر الأمر، لأنّه يحملها ما لا يحمل.. ليس له أي صديق.. حتّى علاقته بالعلم، بالحقيقة هي علاقة نزاعية وعلاقة العبد بالسيّد .. ليست علاقة تفهم وحبّ وخلق... ثمّ لا يقرأ اسمه على قائمة النّاجحين في السّنة الأولى.. ويموت ويحيا في الصّيف ليحضّر سبتمبر.. ولا يقرأ إسمه .. ما يسالش.. ويعيد العام .. لكن ليس له منحة. يجب أن يعمل.. وينسج من واقعه خيوط غد مشرق. ويفشل. فكيف له أن يفكر في العمل وفي الدّراسة وفي نفسه وكيف له أن ينجح والفشل وراءه.. الآن يجب أن أبحث عن عمل.. هكذا قرّر بعد أن رفضته الجامعة.. وهل له أن يختار.. وتقدّم إلى مناظرة كتبة في وزارة العدل.. ونجح..

حمّام الأنف. قفّته تضايق المسافر بجانبه. يأخذها ويضعها على المكان المخصص للحقائب والمتاع. انها فارغة على كل حال، سوى من إناء كان فيه مرقة البارحة.. هكذا يعيش الآن. لقد تفاهم مع صديقه على ما يلي: يوم عليه المرقة وعلى الصديق الباقات ويوم عليه الخبز وعلى الصّديق المرقة... يا أخي ماذا تريد؟.. على هذا التقشّف يشيد الآن شبع الغد. يقول ويحاول أن يقنع نفسه. فليس مع قليس يولّي كديّس. ويجد من يحاول أن يسمعه. الدليل: الصديق. لن يتألّمون من غلاء المعيشة. يقترح أن يشدّ الحزام أكثر في الحقيقة، هو ليس ضد الفقراء ولقد قرأ ماركس ككلّ الطلبة، لكنه مع المستقبل.. سعادته غدا. لغد يعيش. لذلك يعيش اليوم هكذا.. غدا..

برج السدرية. مقهى القبب. يلقيّ المنصف نظرة على البناية البيضاء الجميلة الغارقة في الأنوار المحيطة بها.. المقهى يعد نفسه لسهرة السبت. وهو لم يعدّ نفسه؟ منذ سنتين الآن، وهو يشتغل بوزارة العدل.. والملاليم تتكدس. ووجهه يصفرّ وينحل.. ألتعب والقطار ونظام العيش.. ووجدت أمّه الحلّ.. الزواج.. لكنّه قالها وصورة المومسات في باله.. لا أريد.. انتظري حتى أكوّن.. هو في فترة تكوين. الدّار قبل الزواج. الادخار.. زد على ذلك.. من يرضى به؟ المرأة ينعم بها من يستحقها. من عنده المال. وهو يجب أن يصبر. ونهج عبد الله قس في طريقه صباحا مساء. تتكدّس الدنانير بصعوبة. مع غلاء القطار وغلاء الحياة. لقد خسر معركة الجامعة، لكن لن يخسر معركة العمل.. أو قل معركة الفقر ضدّ الثراء.. العمل لا يهمّه.. كما كان العلم من قبل، لا يهمه أوليا.. كان النجاح يهمه. والآن الفلوس والمرتب..

قرمبالية. ينزل من القطار كثير من المسافرين. حينئذ، يرفع نظره الى ما حوله.. يسلم على أحد الزّملاء المسافرين يوميا. لقد التفّ أربعة شبّان. وهم الآن في عزّ طرح شكبّة. وضعيتهم نفس وضعية المنصف. لكنّ المنصف ليس متفقا معهم.. هم كما ترى الشّكبّة... حتّى توقّف القطار لا يثير فيهم أيّ انتباه.. كلّ تركيزهم في الديناري والبرميلة والماكلة والتشكيب.. لقد اختاروا أن يبيعوها بلفتة كما يقول عنهم المنصف. يسهرون الى الصباح في النزل السياحيّة ويشكّلون السائحات رجالا ونساء، وينامون أثناء العمل رغم عيونهم المفتوحة تماما. وكلّ نقودهم تنفد في واحد في الشّهر.. على كل حال، لن نصبح أثرياء.. ولا نريد أن نصبح أثرياء.. نريد أن نأكل ونعيش وننصب..

لكنك لو تأخذ واحدا منهم على إنفراد لتجد كيانا مرتجفا، ممزّقا بألم اليأس والخيبة والنّقص، ولتجد أنّ ذلك الموقف، لربّما هو دفاع للبقاء، وسيلة يدافعون بها ليبقوا.. متوازنين.. وأنّها وسيلة لاخفاء الحقيقة، ولاجتنابها ولابعادها...

بوعرقوب. تلملم المنصف في معطفه. وسواد الخارج يمنعه من مشاهدة أيّ شيء. مع أنّها موجودة فعلا. تلك الديار الجاثمة في الظّلام والمراعي وحقول العنب.. يحوّل بنظره إلى العربة. تصله أحاديث مشتتة. الكأس للنّجم والبطولة للصفاقسي.. هكذا تسير الكرة مثل القطار.. من الشمال الى الجنوب. ويحنق الترجيون والافريقيون.. العام المقبل. العام الجاي. بدأ المنصف يجهّز نفسه للنزول في بئر بورقبة للتبديل.. تبديل السكة.. وخطرت بباله فكرة.. بدأت تتوضح شيئا فشيئا. لم لا أبدل فعلا من قطار إلى قطار؟ من إتجاه إلى اتجاه؟ منذ سنوات وهو يغيّر من وجهته.. حديديا إن صحّ التعبير.. فلم لا يغيّرها فعلا؟ هذه المحطة لها جاذبيّة غريبة.. فهي توجّه نحو عدّة نقط. هي نقطة انفتاح. ولكن كيف أبدّل من عربة إلى أخرى؟. وماذا عساي أن أفعل؟ والى أي اتجاه ومع من؟... كلّ هذه الأسئلة بردت من عزمه.. وعمّه الإرتخاء من جديد.. حينما تبدأ المغامرة بالبحث عن نقطة الوصول.. تنتفي المغامرة.. والمنصف لم يتعلم المغامرة. تعلّم التخطيط وحده... وله الآن عدة مئات من الدنانير فعلا.. كم من سنة يجب أن يقضيّ ليصبح له مبلغ طيب؟..

بدأ القطار يهدىء من سرعته.. الحمامات تستقبله بعطورها وبحلاوتها. وحالما وضع قدمه على الأرض، اقتطفه البوب مع كل ركاب العربة.. رافل ليلة السبت.. وقادوا الجميع إلى مركز الشرّطة ليقضّوا الليلة هناك..

- والله شيء ما عملت.. هاي بطاقة التعريف.. راني نخدم في وزارة العدل..

- فرنسا - ليل - الخميس 12 جوان 1983

قصائد لهم ولي

رياض الشرايطي

ـ 1 ـ فقر
كل ليلة،
تأتي القطط
حذو قمامة بيتي،
تموء كثيرا،
ثم تلعن فقري،
وتمضي،

ـ 2 ـ المنفي
رسم بما تبقى من شهد الاظافر،
على خشب الطاولة
شكل خارطة الوطن،
ثم تاه فيها،
باحثا عن بقايا الرفاق
والشظايا،،
ولوح محفوظ،
يحصي عليه عدد الشهداء
والمحن،،،

ـ 3 ـ غرق
السماء في الشارع،
تغرق المدينة في الماء،

وأنا أضحك، أضحك هنا،
حتى غرقت في ملح عيني،
ونزف البلد الموشح بالصحراء،،

ـ 4 ـ هرب

القبرة،
تفرّ، تفرْ
لتنتمي الى جحيم جرح قديم
فتنفث عليه
طوفان ريشها
وتحلم ان تنام،،،

ـ 5 ـ معادلة

إمرأة الريح،
جهنم اللذة

ـ 6 ـ هاتف

ألو،،
ومن آخر الخط
قتلني، هاتف قديم،
قادم من منسي الحقد،
فسرت في جنازتي وحدي
وقصيد لئيم
يقتفي أثري.

ـ 7 ـ الجسد

لهذا الجسد/ البناء
الملتصق منذ حين
بحمى الذاكرة
أسكب ما تبقى لي
في العينين،
من إشتهاء

ـ 8 ـ سؤال

من للنساء،
إذا غاب الاشتهاء؟؟
ومن للغرباء
إذا هجرهم،
الشعراء،،،؟!
دوي السؤال،
لا يزال شاردا،
في عقلي/ الصحراء،،،

صدر
اخيرا



ذاكرة لإتساع اللغات

نصر سامي

(1)

(أكتب ذاكرة لإتساع اللغات
واكتب حتفي وبدئي
معي أحرف تتوزع كالأمنيات هنا وهناك
تلقط عشب الرؤى
وتلون دفء الليالي بضوئي
أكتب الريح
أعطي لايقاعها الورق الأصفر المتداعي
أريق الرؤى لشد الرؤى للشراع
واعطي سواد البساتين
للشجر المتوغل في كلماتي
وأعطي حياتي
لجعل الحضارة أحلى قليلاً)
قليلاً ! ويعرف كل المسالك
كل الدروب التي تصنع التيهَ والأغنيات
ويعرف حزني الذي يصنع الالهة !

(2)

(أحبك
صوتي ملء بنهر قصّي الينابيع
مشتعلٍ بالبروقَ
أحبك
متعَبة كلماتي وقادمة من رذاذ العصور البعيدة
ثوبها مزق والرؤى
حقل لوز كحزن «الطواسين» ملتبسة بالعروق
أحبك
جسرا لرتق انكسار البروق
وأنمو كظل
وراء الظلال التي خلفتها القصيدة)
قتيلا...
ويكتب ذاكرة لائتلاف اللّغات البعيدة
ويحتاج أشرعة
لاحتمال الوعود التي تترقب أوقاتها للإياب
هو الآن أعمى
رؤاه موزعة
كالأساطير في العتمات السحيقة
وبناى
يفجج بين أفخاذ الأراضي
ويعطي الرؤى لاحتمال امتلاك السراب
هو الآن مكتئب كالاه صغير
ويعرف أن القصيدة آتية من بعيد
وأن الحرائق موصودة الباب حتى
توؤد أنثى
وتثغو حمامة
وينداح قصر من الرمل كونه الطفل في الذاكرة
هو الآن أعمى

ويعرف أن يخلق من عتمات الأزقة تفاحة الذاكرة
ويعرف أن يتلاشى ويناى
كنهر من الضوء وقت ائتلاق القصيدة

(3)

لا شيء
كل السؤالات ايقاعها خبب موغل
في دروب الذهول
لا شيء
لكن صوتا جديدا ينام معي لأرتاح
وحدي وأسهر
ويعطي لأيامي الشجر المتدلي كحبل
لأصعد وحدي الى ساعة ليس فيها سواي
أنا ضائع في صداي
أحب المدينة أن تستحيل شفاها
وأن ترحَّل كل الجبال لأزرع أحلام كوثر
واحتاج صوتا بكل اللغات لتنمو القصيدة
أحلى
وتنمو كضوء على الصخر كل الحروف الشريدة
ولكن !
تظل الأماني بعيدة

(4)

(زورقي في المتاه العظيم
يغيب إلى الجنة الضائعة
(زورقي في مهبِّ الرؤى يختفي
عائدًا بالرؤى النائية)
لا شموس على كتفيه لتدفئه
أو موانيء تخفي ارتحال القصائد واحدة واحدة

رماد هوى فوق صخر الرؤى
وألقى السجائر تحت البذور التي بللتها الجليدة
رماد... ويرتاد كل البلاد
كريح شريدة

(5)

(... أنتم أوقاتكم مقطوعة ووقتي
أعمى يتشكل في ضوء العتمات
... يؤلّف ألحان التابوت الآتي
وقتي بوقات تحفر في تابوت الحزن،
الممتد الى رحم الكلمات
تحـفــر
تحـفــر
تحـفــر لكن !
لا مرآة تعيد الرسم الموغل في النسيان إلي
لا ريح لوصل الخالد بالجبل الصاعد من غيم الأيام
وقتي لا ياتي
وقتي يتناسل من أصواتي ينمو في ريح تدنو من كلماتي
وقتي يتوالد
من حب مات على كفي وارتحلت في غيمات رؤاه حياتي !
وقتي لا ياتي
وقتي يتكون كالإنسان ويحلم كالإنسان
بابواب يفتحها أطفال الآتي)
قتيــلا
قتيــلا
وياتي لرتق انكسار اللغات البعيدة

نصر سامي

فتاة البنفسج

عادل بوعقة

تعال
وأخبر جناحي فتاة البنفسج
أن الحياة..
لها كفن واحد..
وقبّل.. جبين الاله
على شر فتيها:
هما البر والبحر
والشمس والموجة العائمة

حنا نيك ذا البرق
صوت الجنون،
يقظ منامي، فأهجر عجزي
وأحفر في الروح
بعض الاخاديد للحزن...
مر طريق الدموع
ومر طريقك وحدك..
أبحث عن آخر الحلم...
أبحث.............................
أبحث عن وطن راح يمعن في البحر
والجرح.........
آه من الجرح حين توغل في النخل،
والمخل انبت تمرا زكيا
تذوقت ....
....
كم هو مر ثمار نخيلي
هذي السنه
تعالي....
فكيف ادجج روحي وحيدا
وكيف سأبحر دون الشراع
وانت انا، مركب واحد
للمساء القديم
حنانيك...

من انبت الحزن
هذا مساء حزين
بعينك آه.
تدفقت فيك كنهر شريد
يريد الرحيل الى الملح
مر طريق الدموع
ودمعك من عسل المنتهى
تسلقت مرمرك الاثري...
ألا دثّريني،
ليوحى الي
بأن البلاد التي طوحتني
تريد قصيدي
وان البلاد وان جوعتني
ستطعمني العسل المرتجى
بعد ليل طويل
وأنك انت البلاد
وأنت فتاة البنفسج حين ارتوى
تعال
لتسمع ترتيل جرح القصيد
فتخبر رجع الصدى
عن بلاد العبور
أقرطاج يا نخلة الروح
مدى ذراعيك نحو الفؤاد
فإني حبيبك منذ قرون
تعالى.....
فإني انا من تعود
هجر الحبيب لتبقي الحبيبة
قرطاج يا زهرة صغتها للنشيد
اليك ببابل قبلة بعض القصيد
تهجدت فيها
لاربط سعف نخيل العراق
بسعفك تونس...
كي تبعثياني.

اصداء ومتابعات



ينعى اتحاد الكتاب التونسيين رحيل احد أعضائه البارزين المرحوم الشاعر الهادي نعمان الذي وافاه الاجل يوم السبت 31 جويلية 1993. ووقع دفنه بمسقط رأسه مدينة المنستير يوم الاحد غرة أوت 1993.

وبهذه المناسبة الإليمة فإن اتحاد الكتاب التونسيين يتقدم بتعازيه الحارة الى عائلة الفقيد العزيز وكافة اعضاء الاتحاد ورجال الابداع والثقافة ببلادنا.

فالمرحوم الهادي نعمان قد ضحى بصدق من أجل الشعر والإبداع والثقافة كما عرف منذ شبابه وطيلة مسيرته الابداعية بسموّ الاخلاق والتواضع والطيبة والاخلاص لاصدقائه الادباء تغمده الله برحمته ورزق اهله وذويه وكافة رجال الابداع والادب والثقافة ببلادنا جميل الصبر والسلوان.

اتفاق ثقافي بين
اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري
واتحاد الكتاب التونسيين لعامي 1993- 1994

بدعوة من اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري الشقيق زار وفد رسمي سوريا يتركب من الاخوة الميداني بن صالح، عثمان بن طالب، سويلمي بوجمعة ويوسف عبد العاطي. وكانت هذه الزيارة مناسبة لامضاء اتفاقية"تعاون وتبادل ثقافي بين الاتحادين، كما كانت فرصة لاجراء اتصالات مثمرة مع الكتاب العرب في كل من دمشق وحلب واللاذقية ولقاءات مع وسائل الاعلام ورئيس مجمع اللغة العربية ووزيرة التعليم العالي وعميد كلية الآداب بجامعة دمشق. وكان الوفد التونسي محل حفاوة من كل الاخوة العرب في سوريا الشقيقة، كما كان محل عناية خاصة من طرف سعادة سفير تونس بدمشق السيد محمد جنيفان والاستاذ علي عقلة عرسان، وننشر نص الاتفاقية راجين ان تسهم في اثراء الثقافة العربية ودعم الصلات بين الكتاب في القطرين الشقيقين.

قياما من الاتحادين بواجبيهما، في تمتين العلاقات بين أعضائهما، ومن اجل تحقيق تواصل ثقافي أعمق بين الشعبين الشقيقين، وتأكيدا على التزامهما بالعمل لزيادة التفاعل بين الجماهير العربية تدعيما للوحدة وتثبيتا للخط التقدمي في مجالات الفكر والادب.

فقد اتفقا على ما يلي:

1 ـ ينسق الاتحادان جهودهما في المؤتمرات العربية والدولية بما يخدم اهدافهما المشتركة. ويساعد على تأصيل الفكر والادب القوميين، ويخدم اهداف الامة في الوحدة والحرية والتقدم.

2 ـ يتبادل الاتحادان الوفود، بالواقع وفد واحد كل عام لكل منهما، على ان يتألف الوفد من (2 ـ 3) لمدة اسبوع للقيام بنشاط ثقافي (محاضرات، ندوات، لقاءات).

3 ــ يتبادل الاتحادان الدوريات التي تصدر عن كل منهما، بواقع نسختين للدورية الواحدة من كل عدد. وكذلك المطبوعات بواقع نسخة من كل كتاب، كما يتبادلان المعلومات والوثائق الأنظمة التي تهم الطرفين.

4 ــ يدعو كل من الاتحادين شخصا او اكثر، لحضور المؤتمرات والندوات ذات الصبغة العربية والدولية، التي يقيمها الاتحاد الآخر.

5 ـ يقدم كل من الاتحادين لأعضاء الاتحاد الآخر، التسهيلات اللازمة ضمن حدود الامكان على ان يحمل العضو كتاب توصية من اتحاد ويمكن التوأمة بين فروع الاتحادين، من خلال كل من المركزين.

6 ـ ينشر كل اتحاد بوسائل النشر الخاصة به ملفا سنويا عن الأدب أو الفكر، في بلد الاتحاد الآخر على أن يقوم كل اتحاد بتهيئة مادة الملف المتعلق به وارسالها لنشرها من قبل نظيره، كما يعرف كل اتحاد بمطبوعات أعضاء الاتحاد الآخر.

7 ـ يزكي اتحاد الكتاب التونسيين اربع مخطوطات (كتب) سنويا ليقوم اتحاد الكتاب العرب بنشرها ضمن مطبوعاته، على ان تطبق عليها الأصول المتبعة، في نشر المخطوطات لديه.

8 ـ بناء على طلب احد الطرفين يلتقي ممثلون عن الاتحادين، لاجراء مباحثات واستشارات في كل ما يتعلق بالقضايا الادبية والثقافية.

9 ـ يقوم الاتحادان كل سنة، بوضع برامج تنفيذية لنشاطهما المشترك، تطبيقا لبنود الاتفاق.

10 ـ مدة هذه الاتفاقية سنتان، تتجدد تلقائيا ما لم يشعر احد الطرفين الآخر برغبته في تعديلها.

رئيس اتحاد الكتاب العرب **في القطر العربي السوري** **علي عقلة عرسان**	رئيس اتحاد الكتاب التونسيين **الميداني بن صالح**

ندوة صحفية

الإتحاد هو الفضاء الأشمل والأرحب لكل الكتاب والأدباء

عقد اتحاد الكتاب التونسيين ندوة صحفية يوم 9 جويلية 1993 وتأتي هذه الندوة لتوضح للرأي العام ما أنجزته الهيئة المديرة خلال سنة ونصف وما تصبو لإنجازه.

وقد أوضح رئيس الاتحاد الاستاذ الميداني بن صالح أن الهيئة تريد ان تحاسب نفسها وأمام الجميع على ما قامت به من نشاطات منذ تولّت مسؤولية الاشراف والتسيير لهذه المنظمة (الفضاء الاشمل والارحب لكل طاقات الابداع والخلق) وانطلاقا من نظرتها الشمولية شمولية الفكر والابداع فان المنظمة مفتوحة لكل المبدعين والكتاب بصرف النظر عن أرائهم ومعتقداتهم.

وقد تجلى هذا من خلال الاقبال الكبير من طرف الكتاب على الانضمام للاتحاد (المطالب المقبولة منذ تولت الهيئة الجديدة تجاوزت 70 عدا المطالب التي ينظر فيها بعد).

أما بخصوص الانشطة فقد كانت متنوعة وثرية وقد نظم الاتحاد الندوات التالية:

1 ـ ندوة الشعر التونسي الحديث
2 ـ ندوة القصة القصيرة.
3 ـ ندوة تحرر المرأة بين النظرية والممارسة
4 ـ ندوة حول مرجعيات الفكر العربي المعاصر.

أما الندوات المبرمجة للمستقبل فهي:

- ندوة أدب الطفل في المغرب العربي.
- ندوة الادب التونسي وعلاقته بالجامعة.

أما بالنسبة للنشر فقد بين رئيس الاتحاد ان اصدار مجلة ثقافية هو مغامرة في حد ذاتها، وقد قبلنا التحدي وغامرنا رغم الصعوبات والمعوقات، وقد كسبنا الرهان في مجلة «المسار» أصبحت تصدر في مواعيدها وازداد عدد السحب من 3000 نسخة الى 4500 نسخة نتيجة تزايد الطلبات. وقد تحصلت على 1000 اشتراك جديد مع اشتراكات وزارة التربية ووزارة الصحة والمكتبة الوطنية وقد شمل التطور شكلها واخراجها والمحتوى ايضا. كذلك الاتحاد بصدد الانجاز لاصدار انطولوجيا للشعراء الشبان. وكذلك سيتم طبع كل الاعمال التي قدمت في الندوات المذكورة.

وقد شهد الاتحاد حركية جديدة ودفع قوي حيث تم فتح فروع في كل من بنزرت وسوسة وفي القريب ستفتح فروع اخرى والاتحاد مانفك يمد جسور التعاون مع اللجان الثقافية والمهرجانات ومع جمعيات ثقافية في الداخل والخارج.

إن كثافة هذه الانشطة لم تمنع الاتحاد من المساهمة في ندوات خارج البلاد كندوة الرواية العربية بطرابلس. وندوة المرأة ببيروت. وملتقى بيروت: «لبنان والوطن العربي نحو نهضة جديدة». وقد نظمت هذه الندوة الجامعة الاوروبية العربية التي وقع الاتحاد معها اتفاقية كذلك وقع اتفاقية تعاون مع اتحاد الكتاب العرب بسوريا .

وفي اختتام الندوة اخذ الكلمة الاخ عثمان بن طالب موضحا ان الاتحاد هو مكسب وطني لابد من دعمه والمحافظة عليه حتى يؤدي دوره على احسن وجه وبين ان انفتاح الاتحاد وتصالحه مع محيطه الثقافي (الجامعة التونسية، الادباء الشبان... الخ) هي نقطة ايجابية تضاف الى رصيد الهيئة الجديدة. ولابد من ارساء علاقة صحية ومتينة بين الاتحاد والفضاءات الثقافية الاخرى.

ان اساليب العمل الجديدة والمتفتحة والمتطورة هي درع الاتحاد وهي الكفيلة بمنحه فرصة الاشعاع والاضافة.



الاتحاد ينظم بمقره ندوة مغاربية حول :

أدب الطفل في المغرب العربي
أيام 8-9 و10 أكتوبر 1993

يضطلع أدب الطفل في الوطن العربي بصفة عامة وفي بلدان المغرب العربي بصفة خاصة بدور ما فتىء خطره يتنامى على الرغم من قصر عمره وطراوة عوده، والناظر في عدد النشريات المخصصة للطفل في هذه البلدان لا بد ان يقف ظاهرتين: أولهما تعدد هذه النشريات من كتب ومجلات، وثانيتهما انعدام التواصل بينهما، فلا توجد مجلة اطفال مغاربية واحدة يقرؤها الصغار في مختلف بلدان المغرب العربي ، كما ان اكثر الكتب لا تكاد تخترق حدود القطر الذي ينشأ فيه.

ولقد ظهرت دراسات تهتم بأدب الطفل ولكن جلها اهتم بجانب محدود من جوانب المسألة فانحصر امره في كاتب مخصوص او بلد محدد او فترة تاريخية معينة، اما الدراسات الشاملة فقليلة بل نادرة، لهذا رأينا أن نجمع ثلة من المهتمين بأدب الطفل ابداعا ونقدا لتتدارسوا امر هذا الضرب من الابداع في البلدان المغاربية الخمسة حتى تتكون لنا منه صورة واضحة الملامح ما امكن ذلك.

وستندرج الدراسات في محاور اربعة:

المحور الاول: تاريخ أدب الطفل في بلدان المغرب العربي.

وهنا يمكن ان نتحدث من بدايات ادب الطفل ورواد الكتابة فيه والظروف التي ادت الى ظهوره.

المحور الثاني: اتجاهات ادب الطفل في بلدان المغرب العربي.

وقد نتحدث هنا عن تصنيف ادب الطفل بحسب الاتجاهات الادبية او الفكرية او الايديولوجية التي خضع لها التأليف فيه.

المحور الثالث: التراث في ادب الطفل في البلدان المغرب العربي.

ولا شك ان عددا كبيرا من هذه النصوص التي كتبت للاطفال قد استلهمت نصوصا اخرى تراثية: ادبية او دينية او تاريخية او شعبية، مدونة او غير مدونة وقد اعتبر هذا التراث مقوما اساسا من مقومات هوية الطفل، فكيف كانت صورة هذا التراث في هذا الادب.

المحور الرابع: الترجمة في أدب الطفل في بلدان المغرب العربي.

ففي هذا المجال من الكتابة كما هو الحال في غيره، ظهرت المؤلفات المترجمة من الادب العربي، فكيف كانت هذه الترجمة. وما هي مقاييس اعتبار الكتب المترجمة في الطفل المغاربي.

اتحاد الكتاب التونسيين

بيان للرأي العام (1)

استعرضت الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب التونسيين في اجتماعها الدوري يوم الثلاثاء 29 جوان 1993 موجة الاغتيالات المجرمةالتي يتعرض لها رجال الابداع والثقافة والعلم بالجزائر الشقيقة على يد عصابات آثمة تنتسب الى ما يسمّى «جبهة الانقاذ الاسلامي FIS» وهي بهذه المناسبة:

1 ـ تحيي أرواح شهداء الفكر والعلم والقلم الذين ذهبوا ضحية الغدر والاجرام وليس لهم من ذنب سوى الاصداع بما رأوه صالحا وبما يعتقدونه الحق، وهو حق الاختلاف والرأي المخالف والدعوة للتسامح ورفض كل اشكال العنف والارهاب... فهم من هذه المنطلقات «شهداء فكر» نذكر منهم بالخصوص الشهداء:

جيلاني اليابس والدكتور الهادي فليس والطاهر جاووت ومحمد بوخبزة....

2 ـ تستنكر بشدة وتشجب بشكل مطلق كل اشكال العنف وممارسات القتل والاغتيال التي تقوم بها الفئات المجرمة والضالة التي تنتسب الى الاسلام زيفا وبهتانا.

3 ـ تجدد تمسكها المبدئي بحق كل المواطنين وخصوصا رجال الابداع والفكر والعلم والثقافة «في حرية الرأي والتعبير... وحقهم في المساهمة النيرة لاضاءة مسيرة شعوبهم على درب الحرية والعدالة والتسامح والمحبة والاخاء من اجل مجتمع ديمقراطي تعددي اصيل التجذر عقلاني النظرة ومستقبلي التطلع.

4 ـ تدعو كل المثقفين الديمقراطيين الشرفاء ان يرفعوا اصواتهم عالية للتنديد بهذا الخطر الاجرامي وان يقفوا بحزم كبير امام الحركات الظلامية المعادية للديمقراطية والحرية ومبادىء حقوق الانسان حماية لحق الحياة الذي هو من اقدس الحقوق ودفاعا عن اسس المجتمع المدني وقيم التسامح والعقلنة والتحديث والمعاصرة.

اتحاد الكتاب التونسيين

بيان للرأي العام (2)

استعرضت الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب التونسيين في اجتماعها المنعقد يوم الثلاثاء 29 جوان 1993 العدوان الاجرامي الاخير الذي قامت به الولايات المتحدة الامريكية على بغداد فجر يوم الاحد 27 جوان 1993 والذي من نتائجه تهديم المساكن وقتل الابرياء والاعتداء على دولة مستقلة ذات سيادة عضو بالجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة.

ونتيجة لمسلسل الاعتداءات التي تعرض ويتعرض لها العراق الشقيق منذ اندلاع حرب الخليج فان الهيئة المديرة للاتحاد تعلن للرأي العام ما يلي:

1 ـ استنكارها لهذا الاعتداء الامريكي الغاشم على العراق الشقيق الذي يمثل تجاوزا وخرقا لمبادىء حقوق الانسان والمواثيق الدولية وحق الشعوب في الاستقلال والامن والسلامة بعيدا عن كل أشكال الظلم والقهر والاحتواء.

2 ـ قلقها المبدئي وخشيتها الكبيرة من انحراف مجلس الامن (الذي اصبح تحت هيمنة الولايات المتحدة الامريكية لخدمة مصالحها واهدافها العدوانية) حيث بدأ يتنكر لرسالته الانسانية الدولية التي بعث من اجلها وهي حماية الشعوب والدول، خاصة الصغيرة والدفاع عن حقها في الاستقلال والامن وحق الاختيار والتخلص من كل اشكال التبعية.

3 ـ مناشدتها لكافة الدول العربية مهما اختلفت انظمتها وتوجهاتها الى الوقوف بجانب الشعب العراقي والتنديد بهذا العدوان الامريكي الغاشم تجسيدا لروح التضامن القومي وما نص عليه ميثاق الجامعة العربية.

4 ـ دعوتها لكل الضمائر الحية والمثقفين الديمقراطيين الاحرار ومناضلي حقوق الانسان الى العمل الجاد والمسؤول لكسر الحصار المضروب ظلما وعدوانا على العراق الشقيق منذ حوالي ثلاث سنوات.

ذلك أن تجويع شعب بحرمانه من حق الغذاء وتعريضه للامراض والاوبئة بمنع حصوله على الادوية يمثل وصمة عار في وجه الانسانية وعملا يتنافى مع كل القيم الانسانية والدينية والاخلاقية وجريمة وحشية يعاقب عليها القانون.

صدر أخيرا

بنية الجملة العربية
بين التحليل والنظرية

للمنصف عاشور

يحتـوي الكتاب على تمهيـد ومقـمة وثلاثـة اجـزاء وخـاتمة وقائمـة في المصادر والمراجع وكـذلك فهارس اعلام ومعجم اصطلاحـات عربي فرنسي وفهرس المواد.

والبحث في اصله اطروحة دكتوارة مرحلة ثالثة قدمها صاحبها بباريس باللغـة الفرنسية وتولى تعـريب نصها الاصلي لتوسيع انتشـارها وتسهيل تداولها في تونس وفي بقية البلدان العربية بالخصوص.

والكتاب في مجمله يهتم بـ «تفهم نظام الجملة العربية حسب نظـريات النحاة العرب وما جـد في مناهج وصفية لسانية في ميـدان دراسة العلاقات التركيبية وذلك انطـلاقا من مدونة من اللغـة العربية الحديثة وهي مـدونة تمثلها نصوص المسعدي والفارسي والمدني باعتبـارها تشير الى ثلاثة انواع من الكتابـة تدور بين نمط الجملة العـربية القـديم ونمط التراكيب الاجنبية ونمط التراكيب القريبة من النمطين السابقين وهو بين بين.

وهـدف البحث ـــ ليس الادب بل التعمق في تقصي خصـــائص الجملـة ومكـوناتها ووظـائفها لان مجال الجملـة يعتبر بدايـة ونهاية كل محاولـة نحـوية خـالصة فهي مجال التعلق بين الاسماء والافعـال والحروف وهي فضاء توليد مركبات نحوية دالة على ما يحققه المتكلم في خطابه.

والعمل كما اشرنـا الى ذلك ينقسم الى تمهيـد ومقدمـة منهجيـة وثلاثـة اجزاء.

اما المقـدمات فمضمونها قائم على بيـان موضوع الجملة وقيـود المدونة المدروسة. واما الاجزاء فهي على شكل كتب:

1 ـ كتاب في الدراسـات النحوية العربية واللسانيـات العامة بين الباحث فيه اهم آراء النجـاة العرب في الجملة مـن حيث التعريف والتصنيف ودور الاعراب في تحليل التراكيب.

كما عـرض طـرق وصف الجمل في اللسـانيـات حسب اهم الاتجاهـات النحوية من وظيفية وتوزيعية وتحويليـة وقدم عددا من المبادىء الوصفية والخاصة بالمدونة وشروطها في الدراسة النحوية.

2 ـ أما الكتاب الثاني فشمل وصـف الجملة في المدونة وهو باب ينقسم حسب خصائص التركيب عند المسعدي في كتابه حدث أبو هريرة قال وعند الفـارسي في كتـاب المنعـرج وعند المدني من خـلال نصـوص متنـوعـة من خرافات.

ويتكون كل قسم من الكتاب الثاني من تفريعـات موحدة تتعلق بالجملة البسيطـة والجملة المركبـة من حيث أشكـالها النظـرية وصنـف مركبـاتها ووظـائفهـا وتأويـل العـلاقـات الجاريـة في كـل صنف مع تمثيل نماذج بالمشجرات.

وتختم كل قسم بدراسة الجمل من جهـة سماتها التنغيمية وما تحتوي عليه من انشـاء كالاستفهـام والنداء والقسم والتعجب وغير ذلك، وقضـايا التلازم كالشرط والظرف والحصر...

3 ـ وفي الكتـاب الثالـث والاخير مساهمة في تفهم نحـو الجملة العـربية وحصر لخصائص المدونـة كما وكيفا. وفي هـذا الاطار قدم صـاحب البحث بعض الاسئلة حـول خصائص الدراسـة النحويـة العربية وقـد اكد المؤلف اهميـة تحليل الجملـة في التنظير النحـوي وتوضيـح القواعـد والعـلاقـات التركيبية التي يستند اليها الـوصف. وادى ذلك الوصف الى وضـع مقدمات لنحو شكلاني لكل العمليات الاسنادية ومركبـاتها في اطار نظرية هامة هي العامل النحوي.

وختم الباحث عمله بـابـراز قيمة وصف الجملـة في النحو العـربي على ضوء نظرية الاعراب والعامل.

يمثل هذا العمل قـراءة لنظريات النحـاة وتطبيقا على مـدونة ليست هي الاولى ولا الاخيرة اذ يجب ان يـزداد عـدد مثل هـذه الابحاث الطـريفـة في رحاب جامعتنـا بغية تفهم النظرية النحوية منهج النجـاة في تقديم مبادئهم وقواعدهم الوصفية.

والبحث في نظر صاحبه قائم على تحقيق منهاج نحوي هدفه علم الجملة

العربيـة ووصف نظـامها... ومـرماه تعليمي تـربوي يقـدم مثالا لـدراسة الجمل. ولا يتحقق هذا المشروع الطموح وبقراءة متعمقة في نظريات النحاة وفي اللسـانيـات التي من شأنها فتـح افق منهجي وتأويلي تستفيـد منـه الدراسات النحوية.

والعمل على ثـرائه يعتبر مـرجعـا يمكن ان يعين المهتمين بميـدان نحـو الجمل على استيعـاب المواضيع المتصلة بعلـوم اللغة ونظـام العلاقـات بين مكونات الجملـة العربية وخير رد على القائلين بانعدام وجـود نحو جملة في اللغة العربية.

تقديم محمد الصالح القادري
كلية الآداب بمنوبة

